تذكير النفوس المؤمنة بأسباب سوء الخاتمة وأسباب حسن الخاتمة

جمع وترتيب

أحمد فريد

عفا الله عنه

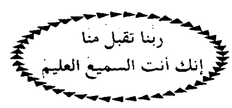






تذكير النفوس المؤمنة بأسباب
سوء الخاتمة وحسن الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم







دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مُقَدِّمَة

نسأل الله حسن الخاتمة

الحمد لله المستحق لغاية التحميد، المتوحد في كبريائه وعظمته الولي الحميد، الغني المغني المبدئ المعيد، المعطي الذي لا ينفد عطاؤه ولا يبيد، المانع فلا معطي لما منع، ولا رادَّ لما يريد، خلق الخلائق وأوضح لهم أحسن طريق، وهداهم إلى الأمر الرشيد، وصورهم فأحسن صورهم، وبشّر من أطاعه بالجنة والنعيم والتخليد، وحَذَّرَ من عصاه من العذاب الشديد، وحكم على خلقه بالفناء فما لأحدٍ عنه محيصٌ ولا محيد، فكم أبكى الموت خليلاً بفراق خليله، وكم أيتم طفلاً فشغله ببكائه وعويله.

فالملك والمملوك، والغني والصعلوك، والقوي والضعيف، تساوت قبورهم في الفقر والبيد.

فسبحانه من إله أذلَّ بالموت كل جبار عنيد، وكسر به

من الأكاسرة كل جبار صنديد، وأُخرجوا من سعة القصور إلى ضيق القبور، وقُطِعَ حبل أمدهم المديد.

أخذ به الآباء والجدود والأطفال من المهود، وأسكنهم بعد اللين والسعة والرفاهية مضيق اللحود، وعَفر وجوههم في التراب بعد لين الوسائد والفرش الناعمة والتمهيد، وبقوا في تحت الأرض إلَى يوم الوعيد.

ثمَّ أما بعد..

فإن اللحظات الَّتي ينقلب منها العبد إلَى الشقاوة أو السعادة، والهضبة الَّتي يهبط منها إلَى رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار لجديرة بأن يتفكر المسلم في خطرها، فقد قال النّبيّ ﷺ: «**إنّما الأعمال بالخواتيم**»[1] أي العبرة بما يختم به عمل العبد، فمن خُتم له بالكفر والعصيان سلك به ذات الشمال إلى دار الهوان، ومن خُتم له بالطاعة والإيمان سُلك به ذات اليمين إلى دار النعيم وجوار رب العالمين، فما أخطرها من لاحظات وما أهونها

(1) سيأتي تخريجه – إن شاء الله – .

على أصحاب الغفلات الغارقين في الشهوات أو المغرورين بالشبهات.

قال في «اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات»:

واعلم – رحمك الله – أن أمر الخاتمة وما يحذر من سُوءه أمرٌ إذا ذُكرَ حَقَّ ذكره انفطرت له القلوب وتصعّدت له الأكباد وتقطعت.

ولولا أن الله جل وعلا حَدَّد الآجال لزهقت الأنفس عند أول ذكره، ولكنها مربوبة مدَبَّرةٌ، مقهورة مصرفة، تخرج إذا أذن لها في الخروج، و تلج إذا أذن لَهَا في الولوج، وما يمنع القلوب من الانشقاق والانصداع والانفطار والانقطاع، والذي يلقى المختوم له بسوء الخاتمة عذاب لا تقوم له السموات والأرض لشدته، و لا آخر لمدته.

وما منّا من أحد إلاّ ويخاف أن يكون ممن يختم له بسوء الخاتمة.

بكى سفيان الثوري ليلة، فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من

هذه، إنما أبكي خوف سوء الخاتمة؛ لأنه الأمر الذي يُبكي عليه، ويصرف الاهتمام إليه؛ ولذلك قيل: لا تكفَّ دمعك حتَّى ترى في المعاد رَبْعكَ.

وقيل: لا تكحل عينك بنوم، حتّى ترى حالك بعد اليوم.

وقد علمت أن الناس صنفان: صنف مقرب مُصانٌ، وصنفٌ مبعدٌ مهانٌ، صنف نصبت له الأسرة والحجالُ، وجمعت له الرغائب والآمال والآرائك والكلال، وصنف أعدت له الأراقم والصلال والمقامع والأغلال، وضروب الأهوال(1).

ثم أما بعد:

فهذه رسالة لطيفة جمعتها تذكرة لي ولإخواني المسلمين بخطر الخواتيم؛ حتّى يستحضر العبد هذه اللحظات الحاسمة الّتي يختم بها للعبد في الدنيا، ويترتب

(1) «اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات قبل هجوم هادم اللذات ومُشتت الشمل، ومفرق الجماعات» لعبد العزيز محمد السلمان (31-32) الطبعة الأولى، وقفية.

عليها مصيره في الآخرة، فمن وفق للطاعة وحسن الظن بالله عز وجل وثبت على الإيمان ومحبة الرحمن، تولى قبض روحه ملائكة الرحمة بيض الوجوه، وبشروه بالمغفرة والرضوان والفوز بالجنان، ومن خُتم له بسوء، بالكفر أو العصيان استحق غضب الديان، ونزلت عليه ملائكة العذاب، وبشروه بالخيبة والخسران، وسخط الرحمن، فالعاقل من جعل هذه اللحظات نُصْبَ عينيه، وعلم أسباب سوء الخاتمة، فأخذ حذره منها، وأسباب حسن الخاتمة، فسعى في تحصيلها، والله الموفّق للصواب والهادي للرشاد، فنسأل الله أن يوفقّنا لطاعته، وأن يهدينا لأسباب رحمته وجنته، وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين، وقدوة للعالمين، وآل بيته الطيبين، وأصحابه الغرّ الميامين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أحمد فريد

1 - خطر الخواتيم

قال العلماء: وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك، وعملك، وصلاتك، وصومك، وجَميع قربك، فإن ذلك إن كان من كسبك؛ فإنه من خلق ربك، وفضله الدَّار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك، فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانعٌ عميم، فأصبحت وزهرها يابسٌ هشيم، إذ هبّت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي، وقلبه بطاعة الله مشرقٌ سليم، فيُصبح وهو بمعصية الله مظلمٌ سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم، الخلاّق العليم(1).

عن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً عن

(1) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» لأبي عبد الله القرطبي، بتحقيق: مجدي فتحي السيد (109/1) ط دار الصحابة طنطا.

المسلمين في غزوة غزاها مع النّبيّ ﷺ، فنظر النّبيّ ﷺ، فقال: «**من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا**» فاتبعه رجل من القوم، وهو على تلك الحال، من أشد الناس على المشركين، حتّى جُرِحَ، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتّى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعًا، فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: «**وما ذاك؟**».

قال: قلتَ لفلان: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إليه، وكان أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت، فقتل نفسه، فقال النّبيّ ﷺ عند ذلك: «**إن العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَل أهل النَّارِ، وإنَّهُ من أهل الجَنَّة، ويَعْمَلُ عَمَلَ أهل الجَنَّة، وإنَّهُ من أهلِ النَّار، وإنَّمَا الأَعْمَالُ بالخواتِيم**»[1].

قال الحافظ: وقع في حديث أنس عن الترمذي، وصححه: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيراً، اسْتَعْمَلَهُ**»، فقيل: كيف

(1) رواه البخاري (507/11) القدر، ومسلم (2/ 160 - 161) الإيمان.

يستعمله؟ قال: «**يُوفِّقُهُ لعَمَلٍ صالحٍ، ثمَّ يقبضُهُ عليه**»، **وأخرجه أحمد من هذا الوجه مطولاً**، وأوله: «**لا تَعْجَبُوا لعَمَلِ عاملٍ، حتَّى تَنظروا بِمَ يُختمُ له**».

فذكر نحو حديث ابن مسعود، وأخرجه الطبراني، من حديث أبي أمامة مختصراً، و أخرج من حديث ابن عمر حديثًا في ذكر الكتابين، وفي آخره: «**العَمَلُ بخواتِيمه، العمل بخواتيمه**»[1].

فكما قال النّبيّ ﷺ: «**إنما الأعمال بالنِّيَّات**»[2]، أي: لا تصلح الأعمال، وإن كانت موافقة للسُّنَّة، حتّى تتوفر النّيّات الصّالحة، و«إنما» أداة حصر في اللغة، قال ﷺ كذلك: «**إنَما الأعمال بالخواتيم**»[3]؛ أي لا تصلح الأعمال الصالحة حتى يختم للعبد بعمل صالح، فيدخل جنة الله – عز وجل – ومن خُتم له بغير ذلك دخل النار، والعياذ بالله، قال النّبيّ ﷺ: «**والذي نَفْسي بيَده، إنَّ**

(1) فتح الباري (11/507 - 508).

(2) رواه البخاري (1/9) بدء الخلق، ومسلم (13/53، 54).

(3) سبق تخريجه ص (12).

أحدَكُمْ لَيعْمَلُ بعمَل أهل الجنَة، حتَى ما يكون بَيْنهُ وبينها إلاّ ذراعٌ، فَيَسْبقُ عليه الكتاب، فيعمَلُ بعمل أهل النار فيدخلُها، وإنَ أحدكم ليعْملُ بعمل أهل النار، حتَى ما يكون بينه وبينها إلاَ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها..» [1].

قال النَوويَ - رحمه الله - : والمراد بالذراع التمثيل للقرب من موته، ودخوله عقبه، وأن تلك الدار ما بقي بينه وبين أن يصلها إلاّ كمن بقي بينه وبين موضع من الأرض ذراع، والمراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس، لا أنه غالب فيهم، ثم إنه من لطف الله - تعالى - وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر، ففي غاية الندور، ونهاية القلة، وهو نحو قوله - تعالى - : «**إن رحمتي سَبَقتْ غضبي، وَغَلَبَتْ غضبي**» [2].

(1) رواه البخاري (486/11) القدر، ومسلم (2643) القدر، والترمذي (2138) القدر.

(2) رواه البخاري (384/13) التوحيد، ومسلم (86/17) التوبة، والترمذي (3611) تحفة الدعوات.

ويدخل في هذا من انقلب إلى عمل النار بكفر، أو معصية، لكن يختلفان في التخليد، وعدمه، فالكافر يُخلّد في النار، والعاصي الذي مات موحداً، لا يخلد فيها، كما سبق تقريره.

وفي هذا الباب تصريح بإثبات القدر، وأن التوبة تهدم الذنوب قبلها، وأن من مات على شي، حكم له به من خير، أو شر، إلاّ أن أصحاب المعاصي غير الكفر في المشيئة، والله أعلم [1]. وقد قال النّبيّ ﷺ: **«من مات على شيء، بعثَهُ الله عليه»** [2].

ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى، كم من وجوه خاشعة، وقع على قصص أعمالها، عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية، كم من شارف مركبة ساحل النجاة، فلما هَمَّ أن

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (296/16).

(2) رواه الحاكم (313/4) الرقاق، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولَمْ يخرجاه، ووافقه الذهبي، ووافقه الألباني في الصحيحة رقم (286).

يرتقي لعب به موجٌ فغرق، الخلق كلهم تحت هذا الخطر، قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، ما العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا [1].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إن الرجل ليعمل زمانًا بعمل أهل الجنة، وهو من أهل النار».

وإنما يكمن خطر الخاتمة مع قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»، أن العبد يكون في غاية الضعف والألم، واليأس من الدنيا، والخوف من خطر ما هو مقبلٌ عليه، وكذا هجوم إبليس عليه بخيله ورجله. فيقول: دونكم هذا إن أفلت منك اليوم، لا تُدركوه. فهذه فتنة عظيمة يثبت الله – عز وجل – فيها قلوب المؤمنين الصادقين، وتتقلب فيها قلوب المنافقين، والمفرطين: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: 27].

(1) لطائف المعارف (355 - 356).

وقد أمر النبيّ ﷺ بالاستعاذة من أربع بعد التشهد الأخير: «**عذاب النار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا، والممات، وشرّ فتنة المسيح الدجّال**» (1).

وفتنة المحيا هي الّتي يتعرض لها العبد في الحياة، وهي فتن متنوعة، وفتنة الممات هي الفتنة في هذه اللحظات، عند السكرات والكربات، والإقبال على رب الأرض والسماوات، نسأل الله الثبات.

قال أبو مُحمَّد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، وما سمع بهذا، ولا علم به - والحمد لله - وإنما تكون لمن كان فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه، حَتَّى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله - أو يكون ممن كان مستقيماً ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سننه، ويأخذ في

(1) رواه البخاري (241/3) الجنائز، من حديث أبي هريرة.

طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته، وشؤم عاقبته؛ كإبليس الذي عبد الله – فيما يروى – ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء، الذي أتاه الله آياته، فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيصا العابد، الذي قال الله في حقه: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ** ﴾ [الحشر: 16] [1].

قال ابن القيم – رحمه الله –: فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه، وقوته، وكمال إدراكه، قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل عن ذكر الله، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته،

---

(1) التذكرة (106/1) وكون إبليس عَبَدَ الله ثمانين ألف سنة، والذي أتاه الله آياته، فانسلخ منها، كان اسمه بلعام بن باعوراء، والذي قال الله في حقه، : ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ كان اسمه برصيصا العابد، لا يجزم بصحته، فإن أكثر ذلك مأخوذ من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذب، ولَمْ يرد ذلك في الكتاب، ولا السُّنَّة الصحيحة فيما أعلم. والله أعلم.

فكيف الظنّ به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه، ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وقد جمع الشيطان له قوته، وهمته، وحشده عليه بجميعما يقدر عليه؛ لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك، فهناك: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: 27].

فكيف يُوَفَّق لحسن الخاتمة من أغفل الله – سبحانه – قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا؟! فبعيدٌ مَنْ قلبه من الله – تعالى – غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته، مشتغلة بمعصيته، بعيد عن هذا أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان.

﴿ **أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا**

تحكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القلم: 39-40].

كما قيل:

يا آمنًا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَهَلْ
أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أنتَ تَمْلِكُهُ

جَمَعْتَ شَيْئَينِ أَمنًا واتِّبَاع هوى
هَذَا وإِحْدَاهُمَا في المرْءِ تُهْلِكُهُ

والمُحسنُونَ عَلَى دَرْبِ المخَاوف قَدْ
سَارُوا وَذَلكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ

فَرَّطْتَ في الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ
فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ

هَذا وأَعْجَبُ فِيكَ زُهْدُك في
دَارِ البَقَاءِ بعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ

مِنَ السَّفِيهِ إذن باللهِ أَنْتَ أَمِ الـ
مَغْبُونُ في الْبَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ[1]

---

(1) الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، بتحقيق. علي الحلبي (143 - 144) ط. دار ابن الجوزي

فالخوف من سوء الخاتمة هو الَّذي طيَّشَ قلوب الصديقين، وحيَّر أفئدتهم في كل حين، ليس لهم في الدنيا راحة، كلما دخلوا سكة من سكك السكون، أخرجهم الجزع إلى شارع من شوارع الخوف.

أَروحُ بشجوٍ ثُمَّ أَغْدُو بِمِثْلِهِ
وَتَحْسَبُ أَنِّي في الثِّيابِ صَحِيحُ

أحكم القومُ العلمَ، فحكم عليهم بالعمل، فقاطعوا التسويف الذي يقطع الأعمال، وانتبهوا، فانتهبوا الليل والنهار، وأخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال، فلما قضوا ديون الجدّ قضت عليهم بالحذر من الردّ.

والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يُقلبها كيف يشاء سبحانه، كما ثبت ذلك عن المصطفى ﷺ.

كم سمعنا عمن آمن، ثم كفر، وكم رأينا من استقام، ثم انحرف؛ لذلك كان كثيرًا ما يردد - عليه الصلاة

والسلام – في دعائه: «**يا مُقلِّبُ القُلُوب، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينك**»[1].

ولقد ارتدّ في زمن النّبيِّ ﷺ بعض من آمن، فخرجوا من النور إلى الظلمات؛ منهم عبيد الله بن جحش، الذي هاجر إلى الحبشة، فارتدّ عن دينه، ودخل النصرانية – والعياذ بالله – وارتد بعد وفاته – عليه الصلاة والسلام – خلقٌ، فقاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وارتدّ كذلك خلقٌ في خلافة عمر رضي الله عنه؛ منهم ربيعة بن أمية بن خلف، وكان في عداد الصحابة، كان رجلاً شرّابًا للخمر، فَحَدَّه عمر رضي الله عنه، ثم نفاه إلى خيبر، ففرَّ هاربًا إلى هرقل، فارتد عن دينه، ودخل النصرانية؛ من أجل خمرة – نعوذ بالله تعالى – من ذلك[2].

---

(1) اللطف في الوعظ، (21) نقلاً عن «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان» (34) لأبي عبد الله عادل بن عبد الله السعيدان، والحديث رواه الترمذي (2140) القدر، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (3834) وصححه الألباني.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة (214/2).

قال ابن الجوزي - رحمه الله - : من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عن موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يُحَدُّ، ويتلهَّفُ على زمانه الماضي.

ويود لو تُركَ حَتَّى يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال، في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

فالعاقل من مَثَّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذلك.

فإن لَمْ يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته، تخايله على قدر يقظته.

فإنه يكفُّ كفَّ الهوى، ويبعث على الجدّ.

فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه، كان كالأسير لَهَا.

كما رويَ عن حبيب العجمي أنه كان إذا أصبح، قال لامرأته: إذا متُّ اليوم، ففلان يُغسّلني، وفلان يحملني.

وقال معروف لرجل: صَلِّ بنا الظهر، فقال: إن صليتُ بكم الظهر، لَمْ أُصلِّ بكم العصر. فقال: وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر، نعوذ بالله من طول الأمل.

وذكر رجل رجلاً بين يديه بغيبة، فجعل معروف يقول له: اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك [1].

(1) صيد الخاطر لابن الجوزي، ط المكتبة العلمية.

2 ـ خوف السلف من سوء الخاتمة

خوف سوء الخاتمة هو الذي قطع قلوب العارفين، فإنّهم في حال السكرات، وقد تخاذلت قواهم، واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لَمْ يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين: إما أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا وليّ الله بالجنة، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب[1].

عن عبادة بن الصامت، عن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لقاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لقَاء الله، كَرِه اللهُ لقَاءَهُ**».

قالت عائشة رضي الله عنها، أو بعض أزواجه: إنّا لنكره الموت.

قال ﷺ: «**لَيْسَ ذلكَ، وَلَكنَّ المُؤْمن إذا حضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ برضوان الله، وكَرامَته، فَلَيْس شَيْءٌ أَحَبَّ إلَيْه ممَّا أَمَامَهُ، فأَحَبَّ لقاءَ الله، وَأَحَبَّ الله لقاءَهُ، وإنَّ الكَافرَ إذا**

(1) إحياء علوم الدين، بتصرف، للإمام الغزالي، (2865) ط. الشعب.

حضر، بُشّر بعذاب الله، وعُقُوبَته، فليْس شيْءٌ أكْرَهَ إليه ممَّا أمامَهُ، فكرِه لقاءَ الله، وكَرِهَ الله لقاءَهُ»[1].

قال الحافظ :قال ابن الأثير في النهاية: المراد بلقاء الله هنا: المصير إلى الدار الآخرة، وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت؛ لأن كلاً يكرهه، فمن ترك الدّنيا، وأبغضها، أحب لقاء الله، ومن آثرها، وركن إليها، كره لقاء الله؛ لأنه إنما يصل إليه بالموت، وقول عائشة ﵂ : والموت دون لقاء الله، يُبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه، ويحتمل مشاقه، حتّى يصل إلى الفوز باللقاء.

قال الطيبي:يُريد أن قول عائشة ﵂ : إنّا لنكره الموت. يوهم أن المراد بلقاء الله في الحديث الموت، وليس كذلك؛ لأن لقاء الله غير الموت؛ بدليل قوله في الرواية الأخرى: «**والموتُ دونَ لقَاءِ الله**» لكن لما كان الموت، وسيلة إلى لقاء الله، عبّر عنه بلقاء الله، وقد سبق ابن الأثير إلى

---

(1)رواه البخاري (11 / 364 - 365) الرقاق .

تأويل لقاء الله، بغير الموت الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، فقال: ليس وجهه عندي كراهة الموت، وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد، ولكن المذموم من ذلك إيثار الدنيا، والركون إليها، وكراهية أن يصير إلى الله، والدار الآخرة، قال: ومما يُبين ذلك أن الله – تعالى – عاب قومًا بحب الدنيا فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** ﴾ [يونس: 7].

وقال الخطابي: معنَى محبة العبد للقاء الله، إيثاره الآخرة على الدنيا، فلا يحب استمرار الإقامة فيها، بل يستعد للارتحال عنها، والكراهة بضد ذلك، وقال النووي: معنى الحديث أن المحبة والكراهية التي تعتبر شرعًا هي الَّتي تقع عند النزع: في الحالة الّتي لا تقبل فيها التوبة، حيث ينكشف الحال للمحتضر، ويظهر له ما هو صائر إليه(1).

والمقصود أن العبد قبل أن تخرج روحه، يُبشر بالنعيم أو العذاب، والعياذ بالله، فمن بشر بالنعيم، أحب لقاء الله

(1) فتح الباري (376/11) .

واشتاق إليه، فأحبّ الله لقاءه، ومن بشر بالعذاب، كره لقاء الله، وأشفق منه، فكره الله لقاءه، ومن هنا كان خوف السلف ﷺ؛ لأنهم ينتظرون في هذه اللحظات إحدى البشارتين.

رُوي أن حذيفة بن اليمان ﷺ قال لابن مسعود ﷺ: قم، فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود، ثم جاء فقال: قد طلعت الحمراء، فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وبكى أبو هريرة ﷺ عند موته، وقال: والله ما أبكي حزنًا على الدُّنيا، ولا جزعًا من فراقكم، ولكن انتظر إحدى البشريين من ربي، بجنة أو بنار[1].

وعن إسماعيل بن عبيد الله أن أبا مسلم قال: جئت أبا الدرداء، وهو يجود بنفسه، فقال: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا، ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا، ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه، ثم قُبض[2].

(1) بتصرف من «إحياء علوم الدين» للغزالي (2865 - 2866).

(2) الثبات عند الممات، لابن الجوزي، بتحقيق. خالد علي مُحمّد (129) توزيع دار الأندلس.

ولما احتضر أبو بكر بن حبيب، وكان يدرّس، ويعظ، وكان نعم المؤدب، قال له أصحابه لما احتضر: أوصنا، فقال: أوصيكم بثلاث: بتقوى الله – عز وجل –، ومراقبته في الخلوة، واحذروا مصرعي هذا، فقد عشتُ إحدى وستين سنة، وما كأني رأيت الدُّنيا، ثم قال لبعض إخوانه: انظر هل ترى جبيني يعرق؟ فقال: نعم. فقال: الحمد لله هذه علامة المؤمن. يريدُ بذلك قول رسول الله ﷺ: «**المؤْمنُ يمُوتُ بعَرَق الجَبِين**»، ثم بسط يده عند الموت، وقال:

هَا قَـدْ مَـدَدْتُ يَدي إلَيْكَ فَـرُدَّهَا
بالْفَـضْلِ لا بِشَـمَـاتَةِ الأَعْـدَاءِ[1]

وقال الشعبي: لما طُعِنَ عمر، جاء ابن عباس رضي الله عنهما فقال: يا أمير المؤمنين، أسلمتَ حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وقتلت شهيداً، ولَمْ يختلف عليك اثنان، وتوفي رسول الله ﷺ، وهو عنك راضٍ. فقال له: أعد مقالتك. فأعاد عليه.

(1) السابق (179-180) والحديث سيأتي تخريجه.

فقال: المغرور من غررتموه، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس، أو غربت، لافتديت به من هول المطلع[1].

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة، بكى، فقيل له في ذلك، فقال: إني أنتظر رسولاً يأتيني من ربي، لا أدري هل يُبشرني بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت مُحمَّد بن سيرين الوفاة، بكى، فقيل له: ما يُبكيك، فقال: أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنّة العالية، وما يُنجيني من النّار الحامية.

ولما حضر أبا عطية الموت، جزع، فقالوا له: أتجزع من الموت؟ فقال: وما لي لا أجزع، وإنما هي ساعة، فلا أدري أين يُسْلَكُ بي.

ولما نزل الموت بسليمان التميمي، قيل: أَبْشر، فقد كنت مجتهداً في طاعة الله – تعالى – فقال: لا تقولوا هكذا، فإني لا أدري ما يبدو لي من الله – عز وجل – فإنه – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر: 47].

(1) نقلاً عن « كلمات على فراش الموت » لوحيد بالي (46) ط. ابن رجب.

قال بعضهم: عملواأعمالاً كانوا يظنون أنّها حسنات، فوجدوها سيئات.

ولما حضرت الفضيل بن عياض الوفاة، غُشيَ عليه، ثم أفاق، وقال: يا بُعْدَ سَفري، وقلّة زادي.

ولما حضرت الوفاة عامر بن قيس بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال أبكي لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: 27].

قال بعضهم يوبخ نفسه، ويعظها: يا نفس بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها.

فكأنك بالقبور، وقد تشققت، وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرءوس العصاة وقد أطرقت، قال تعالى وتقدس: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾

[السجدة: 12].

يا نفس، أما الورعون فقد جَدُّوا، وأما الخائفون فقد

استعدوا، وأما الصالحون فقد فرحوا وراحوا، وأما الواعظون فقد نصحوا وصاحوا، العلم لا يحصل إلاَّ بالنصب، والمال لا يجمع إلاَّ بالتعب، أيها العبد الحريص على تخليص نفسه، إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا ينالُ العزَّ والمفاخر من كان في الصَفّ الآخر[1].

---

(1) باختصار من «اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات» لعبد العزيز مُحمَّد السلمان (144 - 148) طبقة وقفية .

3 - معنى سوء الخاتمة

سوء الخاتمة أن يموت العبد على حالة سيئة - والعياذ بالله -؛ من كفر، أو جحود، أو شكٍّ، وهذه الداهية العظمى، والرَّزيَّة الكبرى، فإن ذلك يوجب لصاحبه الخلود في العذاب، وغضب الملك الوهاب، وأدنى من ذلك أن يموت، وهو متلبس معصية من معاصي الله - عز وجل - أو مُصرٌّ عليها بقلبه، والمرء يُبعث على ما مات عليه، والمُوَفَّقُ من وفقه الله - عز وجل - ، والمخذول من حرم هدايته، وتوفيقه.

قال العلامة صديق حسن خان: سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى.

فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت، وظهور أهواله إما الشك، وإما الجحود، فتُقبض الروح على تلك الحالة، فتكون حجابًا بينه وبين الله

– تعالى – أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية – وهي دونها –: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا، أو شهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حَتَّى لا يبقى في تلك الحالة مُتسعٌ لغيره، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلاّ أن أصل الإيمان، وحب الله – تعالى – إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة، وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، يمحو عن القلب هذه الحالة الّتي عُرضت له عند الموت، فإذا كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال، أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك، طال مكثه في النار.

ولكن لو لَمْ يكن إلاّ مثقال حبة، فلابد وأن يخرجه من النار، ولو بعد آلاف السنين، وكلُّ من اعتقد في الله – تعالى – ، وفي صفاته، وأفعاله شيئًا على خلاف ما هو به؛ إما تقليداً، وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر،

والزهد والصلاح لا يكفي هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلاَّ الاعتقاد الحق، على وفق الكتاب العزيز، والسُّنَّة المطهرة، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر(1).

(1) يقظة أولي الاعتبار ص (216).

4 - أسباب سوء الخاتمة
- نسأل الله العافية -

1 - فساد المعتَقَد، والتَّعَبُّد بالبدع:

فإن أهل البدع هم أكثر الناس شكًا، واضطرابًا عند الموت؛ وذلك لسوء معتقدهم، وفساد قلوبهم، ومرضها بالشبهات، والشكوك، وقد يظهر لهم من معاينة أمور الآخرة عند الموت ما يُظْهِرُ فساد معتقدهم، وسوء منقلبهم، فيدفعهم ذلك اليأس، والقنوط، فأهل السُّنَّة هم أكثر الناس ثباتًا على أقوالهم، ومعتقداتهم، فالثبات على الحق هو سيما أهل الحق «قال هرقل لأبي سفيان بن حرب، سائلاً عن أصحاب رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم :

هل يرتد أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه سخطةً له.

قال: لا.

قال: كذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب»، فأهل السُّنَّة والجماعة هم أعظم الناس صبرًا، وثباتًا على أقوالهم ومعتقداتهم، وأهل البدع هم أكثر الناس شكًا واضطرابًا في الحياة، وعند الممات.

قال العلاَّمة صدِّيق حسن خان في أسباب سوء الخاتمة:

منها الفساد في الاعتقاد، وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد في اعتقاده، مع كونه قاطعًا به، متيقّنًا له، غير ظانٍّ أنه أخطأ فيه، قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقَّة، مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له، إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سببًا لزوال بقية اعتقاداته، فإن خروج روحه في هذه الحالة، قبل أن يتدارك، ويعود إلى أصل الأيمان، ويُختم له بالسوء، ويخرج من الدنيا بغير إيمان، فيكون من الذين قال الله — عز وجل — فيهم: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر: 47] وقال في آية أخرى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ**

أعْمالاً (١٠٣) الَّذين ضلَّ سَعْيُهُمْ في الْحَياة الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُون أَنَّهُمْ يُحْسنُون صُنْعًا ﴾ [الكهف : 103 - 104] .

فإن كلَّ من اعتقد شيئًا على خلاف ما هو عليه؛ إمّا نظرًا برأيه، وعقله، أو أخذًا مما هذا حاله، فهو واقع في الخطر، ولا ينفعه الزهد، والصلاح، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ؛ لأن العقائد الدينية لا يعتد بها، إلاَّ ما أخذت منهما [1].

وكم خُتم لكثير من البشر بالسوء؛ بسبب ما ابتدعوا في دين الله – عز وجل – ، وزاغوا، وانحرفوا عن صراطه المستقيم، وظهرت حقيقتهم في أول لقائهم مع رب العالمين.

فهذا هو ابن الفارض، عمر بن علي الحموي (المتوفى سنة 632 هـ)، والذي كان ينعق بالاتحاد، ويقول بحلول الله -- جل وعلا – في مخلوقاته، وأن الرب عبدٌ، والعبد رب، عندما احتضر، نظم بيتين من الشعر، وهو في تلك الحالة،

---

(1) يقظة أولي الاعتبار، (205) ط . دار الفتح، بتحقيق د . أسامة عبد العظيم حمزة .

يُعبر فيهما عن شقوته، وعن هلاكه، يبكي، ويقول:

إنْ كـان مَنْزِلَتي في الحُبِّ عِنْدَكُمُ
مَا قَـدْ رَأَيْتُ فَقَـدْ ضَيَّـعْتُ أَيَّامي
أُمْنِيَّـةٌ ظَفِـرَتْ نَفْـسي بِهَـا زَمَنًا
وَالْيَـوْمَ أَحْسَـبُهَـا أَضْغَـاثُ أَحْلامِ

قـال ذلك عندما عـاين سـخَطَ الله – جلَّ وعـلا –، وكشف له عن حقيقة أمره، وقلَّ أن يختم لمبتدع في دين الله – تعالى – بالإيمان – نسأل الله السّلامة والعافية [1].

2 – **ومن أسباب سوء الخاتمة: مخالفة الباطن للظاهر:**

فقد يكون العبد بظاهره يعمل بطاعة الله – عز وجل –، ولكنه يُبطن النفاق، أو الرياء، أو يكون في قلبه دسيسة من دسائس السوء، كالكبر، أو العجب، فيظهر ذلك عليه في آخر عمره، ويختم له به، فتكون الخسارة الأبدية والهلاك الأُخروي؛ كما في قصة الذي كان يُقاتل مع رسول الله ﷺ

(1) نقلاً عن «رسالة عاجلة إلى المسلمين» (19 - 20) بتصرف.

ويُبلي أحسن البلاء، ولكنه لَمْ يكن ذلك لله – عز وجل – أو من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما جرح استعجل الموت، فانتحر، فقال النّبيّ ﷺ: «**إنَّ الرَّجُل ليَعْملْ عملَ أهْلِ الجنَة فيما يبدو للنّاس، وهُو منْ أهْلِ النّار**»[1].

فقوله ﷺ: «**فيما يبدو للنَّاس**» يدل على أن باطنه خلاف ظاهره، ولا يُمكن أن تسوء خاتمة من صلُح ظاهره وباطنه، والله أعلم.

قال الحافظ ابن الجوزي:

واسم الرجل قزمان، وكان قد تخلّف عن المسلمين يوم أُحُد، فَعَيَّرَهُ النساء، فخرج حَتَّى صار في الصف الأول، فكان أول من رمى بسهم، ثم صار إلى السيف ففعل العجائب، فلما انكشف المسلمون، كسر جفن سيفه، وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار، فمرّ به قتادة بن النُّعمان، فقال له: هنيئًا لك بالشهادة، فقال: والله ما قاتلت

(1) رواه البخاري (538/7) المغازي.

على دين، وإنما قاتلت على حسب قومي، ثم أقلقته الجراحة، فقتل نفسه [1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: «**هَذَا من أَهْلِ النَّارِ**»، فلما حضر القتال، قاتل الرجل أشد القتال، حتَّى كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها أسهمًا، فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله صَدَّق الله حديثك، انتحر فلان، فقتل نفسه، فقال: «**قُمْ يا فُلانُ فَأَذِّنْ أنه لا يَدْخُلُ الجنَّة إلاّ مُؤْمنٌ، إنَّ الله يُؤَيِّدُ الدِّينَ بالرَّجُلِ الفَاجِرِ**» [2] .

وعلى كل حال، إن قلنا إن قصة واحدة، أو متعددة، فهي شاهدة لما أشرنا إليه؛ مِنْ أنّ من أسباب سوء الخاتمة اختلاف الظاهر والباطن ، سواء كان بنفاق أكبر – والعياذ بالله – أو

---

(1) فتح الباري (539/7) .

(2) رواه البخاري (539/9) المغازي .

الرياء والسمعة، كما أن الإخلاص، والصدق ومحبة الله - عز وجل - من أعظم أسباب حسن الخاتمة؛ كما سنرى - إن شاء الله تعالى -.

ومنذ سنوات جرت حادثة بالقصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلاً في حال احتضاره، ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه، ممن كان يصلي معه في المسجد - والله أعلم بما في القلوب- وقال: يا عبد الله، هذا المصحف الذي كنت تقرأ فيه، فاتّقِ الله في نفسك. ولقّنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف، وبـ«لا إله إلاّ الله»، وختم له على ذلك - نعوذ بالله تعالى من الخذلان [1].

وكان رجلٌ كثير الصوم والتعبد، اشتد به الألم، فقال: لقد قلّبني في أنواع البلاء، فلو أعطاني الفردوسَ ما وفّى، بما يُجْرَى عليَّ، ثم صار يقول: وأي شيء في هذا الابتلاء من

(1) بتصرف من «رسالة عاجلة إلى المسلمين» لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني، (34) مكتبة فياض.

المعنى، إن كان موتًا، فيجوز، فأما في هذا التعذيب، فأي شيء المقصود به [1]. ثم هلك، وهو معترض على قضاء الله – عز وجل – وقدره، جاهلٌ بحكمة الابتلاء، ولو تدبّر لحمد الله على نعمه.

فالرجل تكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره، حتّى يبلغه إياها، ولكن الأمر كما قال النّبيّ ﷺ: «**إنّ أحدكم ليَعْملُ بعَمَل أهْل الجَنَّة، حتّى ما يَكُونُ بَيْنَهُ، وبينها إلاّ ذراعٌ، فيَسْبقُ عَلَيْه الكتابُ، فيعملُ بعَمَل أهْل النَار فيدْخُلُهَا**» [2]– نسأل الله تعالى حسن الخاتمة–.

3 – ومن أسباب سُوء الخاتمة: الإصرار على المعاصي وإلفها:

قال ابن القيم – رحمه الله –: ومن عقوبتها (أي

(1) بتصرف من «رسالة عاجلة إلى المسلمين» لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني، (35) مكتبة فياض.

(2) تقدم تخريجه.

الذنوب والمعاصي) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه، وما يضره في معاشه ومعاده.

إلى أن قال: هذا، وثمّ أمرٌ أخوف من ذلك، وأدهى منه، وأمره؛ وهو أن يخونه قلبه، ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله، فربما تعذّر عليه النطق بالشهادة؛ كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين، أصابهم ذلك، حتّى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلاّ الله. فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلاّ الله. فقال: شاه رخ [1]، غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر قل: لا إله إلاّ الله، فقال:

يَا رُبَّ قَـائِلَةٍ يَوْمًـا وَقَـدْ تَعِـبَتْ
كَيْفَ الطَّرِيقُ إلى حَـمّامِ مِنْجَابِ

ثم قضى.

(1) اسم أحجار الشطرنج.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلاّ الله. فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تنتنا تنتنا حتّى مات.

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول، ولَمْ أدعْ معصية إلاّ ركبتها؟ ثم مات، ولَمْ يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما يُغني عني، وما أعرف أني صليتُ لله صلاة؟.

ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: أنا كافر بما تقول. ولَمْ يقلها، وقضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها، ولساني يُمسك عنها[1].

وقال الذهبي: ما من ميّت يموت إلاّ مثل له جلساؤه الذين كان يُجالسهم، فاحتضر رجل ممن كان يلعب الشطرنج، فقيل له: قل لا إله إلاّ الله، فقال: شاهك. ثم

(1) الداء والدواء (141 - 143).

مات. فغلب على لسانه، ما كان يعتاده حال حياته في اللعب؛ فقال عوض كلمة التوحيد: شاهك. وهذا كما جاء في إنسان آخر، ممن كان يُجالس شراب الخمر، أنه حين حضره الموت، فجاء إنسان يُلقنه الشهادة، فقال له: اشرب، واسقني. ثم مات.

فلا حول ولا قوة إلاّ بالله[1].

قال عبد الحميد السحيباني: فإذا ألف الإنسان المعصية، ولَمْ يتب منها، فإن الشيطان يستولي على تفكيره، حَتَّى في اللحظات الأخيرة من حياته، فإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشهادة؛ ليكون آخر كلامه لا إله إلاّ الله، طغت هذه المعصية على تفكيره، فتكلم بما يفيد اشتغاله بها، وخُتم له بالسوء – عياذاً بالله تعالى – من ذلك، أفلا يخشى الذين يتركون الصلاة تلو الصلاة، ثم يُوعظون، فلا يستجيبون، ألا يخشى هؤلاء أن يُختم لهم بالسوء، ألا يخشى الذين يتعاملون بالربا، ثم لا يتوبون، ولا يذكرون

(1) الكبائر.

أن يتخطفهم الموت، وهم على هذا الجرم العظيم، والذنب الكبير، وأما إذا تاب العبد من المعصية توبةً نصوحًا، فإنه يجرى له الخير بإذن الله؛ لذلك قال علماؤنا: انكسار المذنب خيرٌ من صولة المطيع؛ أي من عجبه بنفسه، وإجلاله لها، ورُبَّ معصية أورثتك ذلاً وانكسارًا خير من طاعة أورثتك عزًا واستكبارًا[1].

قال العلامة صديق حسن خان:

«فإن من له إصرار عليها، يحصل في قلبه إلفها، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره، يعود ذكره عند موته، فإن كان مَيله إلى الطاعات أكثر، يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر، يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة، أو معصية من المعاصي، فيتقيد قلبه بها، ويصير حجابًا بينه وبين ربه،

---

(1) رسالة عاجلة إلى المسلمين (25-26).

وسببًا لشقاوته في آخر حياته؛ لقوله ﷺ: «**المعاصي بريد الكُفْر**».

والذي لَم يرتكب ذنبًا أصلاً، أو ارتكب، وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر. وأما الذي ارتكب ذنوبًا كثيرة، حَتَّى كانت أكثر من طاعاته، ولَمْ يتب عنها، بل كان مُصرًا عليها، فهذا الخطر في حقه عظيم جدًا؛ إذ قد يكون غلبةُ الإلف بها سببًا لأن يتمثل في قلبه صورتها، ويقع منه ميل إليها، وتقبض روحه عليها، فيكون سببًا لسوء خاتمته.

ويعرف ذلك بمثال: وهو أن الإنسان لا شك أنه يرى في منامه من الأحوال الّتي ألفها طول عمره، حَتَّى أن الذي قضى عمره في العلم، يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء، والذي قضى عمره في الخياطة، يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة، والخياط إذ لا يحضر في حال النوم، إلاّ ما حصل له مناسبة مع قلبه؛ لطول الإلف.

والموت وإن كان فوق النوم، لكن سكراته، وما يتقدمه من الغشي قريب من النوم، فطول الإلف بالمعاصي، يقتضي

تذكرها عند الموت، وعودها في القلب، وتمثلها فيه، وميل النفس إليها، وإن قبض روحه في تلك الحالة، يُختم له بالسوء[1].

والأمثلة كثيرة جداً، على أن الإصرار على المعاصي من أسباب سوء الخاتمة.

فمن ذلك: ما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي، عند عبد العزيز بن أبي رواد، قال: حضرت رجلاً عند الموت، يُلَقَّنُ الشَّهادة لا إله إلاَّ الله، فقال في اخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك، قال: فسألت عنه، فإذا هو مدمنُ خمر، وكان عبد العزيز يقول: «اتقوا الذنوب؛ فإنها هي الَّتي أوقعته»[2].

وقال الرّبيعُ بن مُرَّة: وقيل لرجل هاهنا بالبصرة: يا فلان، قل: لا إله إلاَّ الله، فجعل يقول:

(1) يقظة أولي الاعتبار (205 - 206) وقوله: «المعاصي بريد الكفر» أثر عن السلف، ولي حديثًا مرفوعًا. والله أعلم.

(2) جامع العلوم والحكم (173/1) ط. الرسالة.

يَا رُبَّ قَـائِلَةٍ يَوْمًـا وَقَـدْ تَعِـبَتْ
كَيْفَ الطَّرِيقُ إلى حَـمَّامِ مِنْجَابِ

قال الفقيه أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن النجاد: هذا رجل قد استدلته امرأة إلى الحمام، فدلها إلى منزله، فقاله عند الموت.

وذكر أبو مُـحـمَّـد عـبـد الحق هذه الحكاية في كـتـاب «العاقبة» له، فقال:

هذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان يُشبه باب حمام، فمرت به جارية لَهَا منظر، وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟، فقال لها: هذا حمام منجاب، و أشار إلى داره، فدخلت الدار، ودخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره، وليس بحمام، علمت أنه خدعها، أظهرت له البشر والفرح، باجتماعها معه على تلك الخلوة، وفي تلك الدار، وقالت له: «أن يكون» معنا ما نطيب به عيشنا، وتقرّ به أعيننا، فقال لَهَا: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وبكل ما تشتهين، فخرج

وتركها في الدار، ولَمْ يقفلها، وتركها محلولة على حالها، ومضى، فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت، وذهبت ولم يجد لَهَا أثرًا، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها، والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة، وهو يقول:

يَا رُبَّ قَـائِلَةٍ يَوْمًـا وَقَـدْ تَعِـبَتْ
كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلى حَـمّامِ مِنْجَابِ

وإذا بجارية تُجاوبه من طاق، وهي تقول:

هَلاَّ جَـعَلْتَ لَهَـا لَمَّا ظَفِـرْتَ بِهـا
حِرْزًا على الدَّارِ أو قُفْلاً عَلَى الْبَابِ

فزاد هيمانه، واشتد هيجانه، ولَمْ يزل كذلك، حَتَّى كان من أمره ما ذكر، فنعوذ بالله من المحن والفتن[1].

---

(1) التذكرة (1/103-104).

وهذه بعض القصص المعاصرة، والعبر المتأخرة؛ نسوقها للعبرة والعظة، ومن لَمْ يعتبر بغيره كان عبرة لغيره، والسعيد من اعتبر بغيره، والشقيّ من اعتبر بنفسه.

حصل حادث مروّع في طريق مكة إلى جدة، قال من حضر المشهد: فلما رأينا منظر السيارة، ومشهدها الخارجي، قلت أنا ومن معي من الأخوة: ننْزل فننظر ما حال هذا الإنسان وكيف أصبح، فلما اقتربنا من الرجل، وجدناه في النّزع الأخير من حياته، ووجدنا مسجل السيارة مفتوحًا على أغانٍ غربية باطلة، فأغلقنا المسجل، ثم نظرنا إلى الرجل وما يعانيه من سكرات الموت فقلنا: هذه فرصة لعل الله – عز وجل – أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل في دنياه وآخرته، فأخذنا نقول له: يا هذا، قل: لا إله إلاّ الله.

أتدري – أخي – بماذا تكلّم في آخر رمق من حياته؟

ليته ما نطق، لقد قال كلمة رهيبة عظيمة!.

لقد قال – عياذًا بالله تعالى – من ذلك بكلمة العامية،

فسبَّ دين الله – عز وجل – ثم قال: ما بدي أصلي، ولا بدي أصوم، ثم مات على ذلك[1].

وهذه قصة أربعة من الشباب: كلما سمعوا ببلد يفعَلُ فيها الفجور، طاروا إليها، فبينما هم في ليلة من الليالي، وفي ساعة متأخرة من الليل، يُجاهرون الله – عز وجل – بالمعصية، والفجور، بينما هم في غمرة اللَّهو والمجون إذا بأحد الأربعة، يسقط مغشيًّا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة، فيقول له أحدهم: يا أخي، قلْ: لا إله إلاّ الله، فيرد الشاب – عياذًا بالله –: إليك عنّي، زدني كأس الخمر، وتعالي يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله، وهو على تلك الحال السيّئة – نسأل الله السلامة، والعافية – .

ثم كان حال الثلاثة الآخرين، لما رأوا صاحبهم، وما آل إليه أمره، أنّهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهّزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده، ولما وصلوا المطار،

---

(1) رسالة عاجلة إلى المسلمين، (46-47) بتصرف.

فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه، فإذا عليه كدرة، وسواد – عياذاً بالله –[1].

وهذه قصة حكاها لي أحد إخواننا الأفاضل: سيارة على الطريق الصحراوي، من الإسكندرية إلى القاهرة، في المقعد الأمامي شاب وفتاة، تصدر منهما الحركات غير اللائقة، والكلمات الفاسقة المستهترة، والسيارة تسير بسرعة جنونية، وفي لحظات معدودة ارتطمت السيارة بحاجز حديد، فخرج من شاهد الحادث؛ من أجل إسعاف مَنْ بالسيارة، فإذا بالفتاة قد فارقت الحياة على هذه النهاية المأساوية، وإذا بوجهها يسودّ في لحظات، وإذا بالشاب يرغي، ويزبد، ثم فارق الحياة كذلك على هذه النهاية المحزنة والخاتمة السّيِّئة نسأل الله العافية.

وهذه قصة ثلاثة من الأصدقاء: يَجمع بينهم الطيش، والعبث، والمجون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن.

(1) السابق باختصار (54-55).

يقول الراوي: ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شيء جاهزًا، الفريسة لكل واحد منّا، الشراب الملعون، شيءٌ واحدٌ نسيناه، وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرّت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدتُ بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق.

وعندما وصلت فُوجئت بأنها سيارة صديقي، والنار تلتهمها، وهي مقلوبة على أحد جانبيها، أسرعتُ كالمجنون أُحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذُهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة ، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينيه ، وأخذ يهذي: النار . . النار، فقررت أن أحمله بسيارتي، وأُسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوت باكٍ: لا فائدة، لن أصل. فخنقني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي.

وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ فنظرت إليه بدهشة

وسألته من هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدي، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوّية، ولفظ آخر أنفاسه[1].

وهذه قصة شاب آخر فارق الدنيا بعد ليلة حمراء، ولم يمهله الموت حتّى يصل إلى داره.

قال الراوي: حدَّثني أحدهم قال: كنتُ مسافراً في دراسة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان شأني شأن كثير من الشباب الذين يقضون الليل في الملهى، والمرقص، وذات يوم كنّا آيبين من لهونا وعبثنا، وتقدم بعضنا إلى الإسكان، أما واحدٌ منّا، فقد استبطأناه، وقلنا: لعله يأتي بعد سويعة، ولَمْ نَزَلْ ننتظره، لكنه لَمْ يأت، فنزلنا نبحث عنه يميناً، وشمالاً، ثم قلنا أخيراً: لابد أنه في الموقف الذي يُجْعَلُ للسيارة تحت البناء، فدخلنا الموقف، فوجدنا أن محرك السيارة لازال مشتعلاً، وصاحبنا ساكن لا يتحرك،

(1) «للشباب فقط» لعادل بن مُحمّد العبد، نقلاً عن رسالة «أخي الشاب إلى أين تسير» (10-12) لمحمد أمين مرزا عالم، ط. الدعوة السلفية.

والموسيقى لازالت ترن منذ آخر الليل، حَتَّى اللحظة الَّتي فتحنا فيها باب السيارة، فتحنا الباب، ونادينا: يا أخانا، يا صاحبنا، فإذا به قد انقطع عن الدنيا، منذ اللحظة الَّتي وقفت فيها سيارته في ذلك الموقف، وكانت هذه النهاية المحزنة لذلك الشاب، قد أشعلت في قلوب الكثير من أولئك الشباب يقظة، وتوبة، وإنابة إلى الله تعالى، فعادوا إلى الله تائبين، وما شربوا بعدها، وما فجروا، ثم استكانوا، وأنابوا بفضل الله، ثم بتدبرهم لحال صاحبهم، الذي مات على معصية الله، وكانت نهايته موعظة لمن يريد الاتعاظ، وأما المفرط المضيع فهو بمعزل عن ذلك[1].

4 – ومن أسباب سوء الخاتمة: حب الدنيا:

قال العلامة صديق حسن خان: فإن كان في إيمانه ضعف، يضعف حب الله تعالى فيه، ويقوى حب الدنيا في قلبه، ويستولي عليه؛ بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله تعالى، إلاّ من حيث حديث النفس؛ بحيث لا يظهر له أثره

---

(1) رسالة عاجلة إلى المسلمين (52-53).

في مخالفة النفس، ولا يؤثر في الكفّ عن المعاصي، ولا في الحث على الطاعات، فينهمك في الشهوات، وارتكاب السيئات، فتتراكم ظُلُمات الذنوب على القلب، فلا تزال تُطفئ ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفًا في قلبه؛ لما يرى أنه يفارق الدُّنيا وهي محبوبة له، غالبة عليه، لا يُريد تركها، ويتألم من فراقها، ويرى ذلك منه الله تعالى، فيخشى أن يحصل في باطنه بُغضه تعالى بدل الحب، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضًا، فإن كان خروج روحه في اللحظة الَّتي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء، ويهلك هلاكًا مؤبدًا[1].

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا، والركون إليها، والفرح بها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى، وهو الداء العضال الذي قد عمَّ أكثر الخلق، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا؛ يتمثل ذلك الأمر في قلبه، ويستغرقه حَتَّى لا يبقى لغيره متسع،

(1) يقظة أولي الاعتبار (207).

فإن خرج روحه في تلك الحالة، يكون رأس قلبه منكوسًا إلى الدنيا، ووجهه مصروفًا إليها، ويحصل بينه وبين ربه حجاب[1].

وحب الدنيا هو الذي عَمَّر النَّار بأهلها، والزهد في الدنيا هو الذي عَمَّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا، أعظم من السكر بالخمر، فصاحبه لا يفيق إلاَّ في ظلمة اللحد.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان؛ من سكر منها، فلا يفيق إلاَّ في عسكر الموتى، نادمًا بين الخاسرين.

وأقل ما فيها أنه يلهي عن حُب الله وذكره، ومن ألهاه ماله، فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلب عن ذكر الله، سكنه الشيطان، وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر أن يرضيه ببعض أعمال الخير، ليريه أنه يفعل الخير.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : ما أصبح أحد في الدنيا إلاَّ ضيف، ما له عارية؛ فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة.

(1) يقظة أولي الاعتبار (207) .

قالوا: وإنَّما كان حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسداً للدين من وجوه:

أحدُها - أن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقَّر الله - عز وجل - .

ثانيها - أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها، إلاَّ ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله، ومقته، وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

ثالثها - أنه إذا أحبها صَيَّرها غايته، وتوسَّل إليها بالأعمال الَّتي جعلها الله وسائل إليه، وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة، فها هنا أمران:

أحدُها: جعل الوسيلة غاية.

والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شرٌّ معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حَذْوَ القُذَّة بالقذة قول الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ**

فيها وهُمْ فيها لا يُبْخسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾

[هود: 15-16] .

رابعها - إن محبتها تتعرض بين العبد، وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة، باشتغاله عنه بمحبوبه، والناس هاهنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب، في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته، وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن الواجب، الذي يعارض تحصيلها، وإن قام بغيره.

ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهراً، لا باطناً، وزين هذا من عشاق الدنيا، ومحبيها، وهذه من أندرهم، وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد؛ وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجَمع قلبه على لسانه،

وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها، ومحبتها تضر بالآخرة، ولابد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامسُها - أن محبتها تجعلها أكبر هَمّ العبد؛ فقد روى الترمذي، من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كانت الآخرةُ همَهُ، جعل الله غناهُ في قلْبه، وجمع لهُ شمْلَهُ، وأتتْهُ الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومَنْ كانت الدُّنيا أكبر همِّه جعلَ اللهُ فقْرهُ بيْن عينيْه، وفرَّق شمْلَهُ، ولمْ يأْته من الدُّنْيا إلاَّ ما قُدِّرَ لهُ**» (1).

سادسُها - أن محبها أشد النّاس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاثة: يعذب في الدُّنيا بتحصيلها، والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها، والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ويُعذَّب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿ **فلا**

(1) رواه الترمذي (2584 تحفة) صفة القيامة، وسكت عنه، وقال الألباني: وهو إسناده ضعيف، لكنه حسن في المتابعات، وله شاهد عند ابن ماجه، وابن حبان، وانظر الصحيحة رقم (949).

تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : 55] .

قال بعض السلف: يُعذبون بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، و هم كافرون بمنع حق الله تعالى فيها .

سابعُها - أن عاشقها، ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنّما هي :

أَحْـــــلامُ نَـوْمٍ أَوْ كَـظِـلٍّ زائـلٍ
إِنَّ اللَّبِـيبَ بِـمِـثْلِـهَا لا يُخْـدَعُ [1]

والمقصود أن محبة الدنيا من أضر الأمور على العبد في الدنيا والآخرة؛ إذ أنها من أعظم أسباب سوء الخاتمة، فمن غلب على قلبه حب الله - عز وجل- والدار الآخرة حسنت

---

(1) باختصار من « البحر الرائق في الزهد والرقائق » للمصنف، (198-201) وهو مستفاد من « عدة الصابرين، وذخيرة الشاكرين » لابن قيم الجوزي

خاتمته في الغالب، ومن غلب على قلبه حب الدُّنيا، والتّعلّق بأسبابها، ساءت خاتمته في الغالب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قال أبو عبد الله القرطبي: يروى أنه كان بمصر رجل ملتزمٌ مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة، وأنوار الطاعة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان،و كان تحت المنارة دارٌ لنصراني ذميّ، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، وترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار.

فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ فقال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لُبي، وأخذت بمجامع قلبي. قالت: لا أُجيبك إلى ريبة، قال لَهَا: أتزوجك. قالت له: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصَّر ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطح كان في الدار، فسقط منه، فمات، فلا هو بدينه[1]، ولا هو بها.

---

(1) كذا، ولعل هنا كلمة ساقطة، ولعلها فاز.

فنعوذ بالله ، ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة، وسوء الخاتمة[1].

قال القرطبي: ومثل هذا في النّاس كثير، ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا، والهمُّ بها، أو سبب من أسبابها، حتّى لقد حُكيَ لنا أن بعض السماسرة جاء عند الموت، فقيل له: قل: لا إله إلاّ الله. فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف. غلبت عليه «حبُّ» السمسرة.

ولقد رأيت الحُسَّاب[2]، وهو في غاية المرض، يعقد بأصابعه، ويحسب، وقيل لآخر: قل: لا إله إلاّ الله. فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا.

ولقد حكى ابن المظفر في كتاب «النصائح» له قال: كان يونس بن عبيد – رحمه الله تعالى – بزازاً وكان لا يبيع في طرفي النهار، ولا في يوم غيم، فأخذ يومًا ميزانه فرضه

(1) التذكرة (107/1).

(2)لعله يقصد المحاسبين بلغة العصر .

بين حجرين، فقيل له: هلا أعطيته الصانع، فأصلح فساده؟ فقال: لو علمت فيه فساداً لما أبقيت من مالي قوت ليلة، قيل له: فلمَ كسرته؟ قال: حضرتُ الساعة رجلاً احتضر، فقلت له: قل: لا إله إلاّ الله، فامتعض، فألححت عليه، فقال: ادعُ الله لي، فقال: هذا لسان الميزان على لساني، يمنعني من قولها. قلتُ: أفما يمنعك إلاّ من قولها؟ فقال: نعم. قلت: وما كان عملك به قال: ما أخذت، ولا أعطيتُ به إلاّ حقًا في علمي، غير أني كنت أُقيم المدة لا أفتقده، ولا أخبره، فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتي بميزان، ويزن بيده، وإلاّ لمْ يبايعه[1].

قال ابن القيم: وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلسٌ لله، فلسٌ لله. حتَّى قضى.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقّنونه «لا إله إلاّ الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مُشترى جيدٌ، هذا كذا... حتى قضى.

---

(1) التذكرة (1/104-105).

وسبحان الله، كم شاهد الناس من هذا عبراً، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم[1].

5 — ومن أسباب سوء الخاتمة: العُدُول عن الاستقامة:

فالاستقامة على دين الله – عز وجل – والالتزام بشريعته نعمة من الله – عز وجل – ومن شُكْر هذه النعمة الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهراً، والاجتهاد في طاعة الله – عز وجل – ودعوة الناس إلى دين الله – عز وجل – فمن ترك الاستقامة، فقد كفر هذه النعمة العظيمة، والشكر قيد النعم، والكفر من أعظم أسباب زوالها، فمن ذاق طعم الإيمان، وعرف طريق الرحمن، ثم تنكبه، وأعرض عنه، واختار طريق الضلال عليه، وآثر الغيّ على الرشاد، والضلالة على الهدى، والفجور على التُّقى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة.

قال الله تعالى: ﴿ **ولَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ**

(1) الداء والدواء (143).

فَاعْبُدْ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر : 65 - 66] .

ونحن في أزمنة كثرت فيها الإحن والمحن والفتن؛ فتنة الشهوات، والشبهات، فالواجب على الشباب المسلم الملتزم بدين الرحمن أن يزداد تمسُّكًا، وأخذاً بأسباب الثبات على الدين، والحذر من وساوس الشياطين، والاجتهاد في الطاعات، والعبادات؛ حَتَّى تقوى شجرة الإيمان في قلبه، فلا تُزعزعها رياح الشهوات والشبهات، وحتّى يثبت على الإيمان في الحياة، وعند الممات، فقد وعد الله – عز وجل – أهل الإيمان بالتثبيت، فقال تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم : 27]، بل وعد الله – عز وجل – أهل الهداية بمزيد من الهداية، فقال تعالى : ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم : 76] وقال تعالى : ﴿ **وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا** ﴾ [المدثر : 31] .

فالمؤمن ينبغي عليه أن يأخذ بأسباب زيادة الإيمان، والالتزام بدين الرحمن ، ومن تساوى يوماه فهو مغبون، أما

من يتهاون في دينه، ويتساهل في تنفيذ أوامر الله عز وجل، ويتجرأ على حرمات الله، ويتعرض للفتن؛ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه، ومن أعطى أسباب الفتنة من نفسه، أولاً لا ينجو آخراً، وإن كان جاهلاً، ومن سمح لقدمه أن تنزلق، فلا يدري أين تصل قدمه.

وهذه قصة شاب كان ملتزمًا بشرع الله، حريصًا على دينه، محافظًا على يقينه، ثم تهاون في تنفيذ أوامر الله - عز وجل - وتجرأ على حرمات الله، وعدل عن الاستقامة؛ فكان سببًا لسوء خاتمته نسأل الله العافية:

يقول الراوي: صَحبنا على ظهر سفينة - نجول بها حول البلدان؛ طلبًا للرزق - شابٌّ صالح، نقيّ السريرة، طيّب الخلق، كنّا نرى التُّقى يلوح في قسمات وجهه، والنور والبشر يرتسمان على محياه، لا تراه إلاّ متوضئًا مُصليًا، أو ناصحًا مرشداً، إن حانت الصلاة أذن لنا، وصلى بنا، فإن تخلَّفَ أحدٌ عنها، أو تأخّر عاتبه، وأرشده، وكان معنا على هذه السَّجية طيلة أسفارنا، وألقى بنا البحر إلى جزيرة من

جزر الهند، فنزلنا إليها، وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أيامًا يرتاحون فيها، ويستجمُّون بعد عناء السفر الطويل، يتجولون في أسواق المدينة؛ ليشتروا أغرب ما يجدونه فيها لأهلهم، وأبنائهم، ثم يرجعون إلى السفينة في الليل، وكان منهم نفر ممن وقع في الضلال، يتيمم أماكن اللهو والهوى، ومحالّ الفجور والبغاء، وكان ذلك الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبدًا، بل يقضي هذه الأيام يُصلح في السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفها، ويقوم الأخشاب ويشدها، ويشتغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

وقال الراوي، وعينه ترقرق بالدموع، وتنحدر على لحيته: وفي إحدى السفريات، وبينما كان الشاب منشغلًا بأعماله تلك، إذا بصاحب له في السفينة ممن اتبع نفسه هواها، وانشغل بطالح الأمور عن صالحها، وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه، ويقول:

يا صاحبي، لمَ أنت جالس في السفينة لا تُفارقها؟ لمَ

لا تنزل حَتَّى ترى دنيا غير دنياك؟! ترى ما يشرح الخاطر، ويُؤنس النفس، أنا لم أقل لك تعالَ إلى أماكن البغاء وسخط الله، ولا إلى البارات وغضب الله، هيهات يا صاحبي لكن تعالَ، فانظر إلى مُلاعب الثعابين كيف يتلاعب بها، ولا يخافها، وإلى راكب الفيل، كيف يجعل من خرطومه له سلمًا، ثم يصعد برجليه، ويديه، حتَّى يقيمه على رجل واحدة، وآه لو رأيت من يمشي على المسامير، أنَّى له الصبر، ومن يلقم الجمر، كأنه تمر، ومن يشرب ماء البحر، فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات، يا أخي، انزل، وانظر الناس.

فتحركت نفس الشاب شوقًا لما سمع، فقال: وهل في هذه الدنيا ما تقول؟ قال صاحب السوء: نعم، وفي هذه الجزيرة، فانزل ترَ ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه، وتجوَّلا في أسواق المدينة، وشوارعها حَتَّى دخل به إلى طرق صغيرة ضيّقة، فانتهى بهما الطريق إلى بيت صغير، فدخل الرجل البيت، وطلب منه الشاب أن ينتظره، وقال: سآتيك بعد قليل، ولكن إياك إياك أن تقترب من

الدار، جلس الشاب بعيداً عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكرًا، وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية، ليُفتح الباب، وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء، والمروءة.

أواه!! إنه الباب نفسه الذي دخل فيه الرجل، وتحركت نفس الشاب، فدنا من الباب، ويصيخ سمعه لما يدور في البيت، وإذا به يسمع صيحة أخرى، فنظر من شق الباب، ويتبع النظرة أختها؛ لتتواصل النظرات منه، وتتوالى، وهو يرى شيئًا لَمْ يألفه، ولَمْ يره من قبل، ثم رجع إلى مكانه، ولما خرج صاحبه، بادره الشاب مستنكرًا: ما هذا؟! ويحك، هذا أمر يُغضب الله، ولا يرضيه.

فقال الرجل: اسكت يا أعمى، يا مغفل، هذا أمر لا يعنيك.

قال الراوي: ورجعا إلى السفينة في ساعة متأخّرة من الليل، وبقي الشاب ساهرًا ليلته تلك، مشتغل الفكر فيما رآه، قد استحكم سهم الشيطان من قلبه، وامتلكت النظرة فؤاده، فما أن بزغ الفجر، وأصبح الصباح، حَتَّى كان أول

نازل من السفينة، وما في باله إلاَّ أن ينظر فقط، ولا شيء غير أن ينظر وذهب إلى ذلك المكان، فما إن نظر نظرته الأولى وأتبعها الثانية، حَتَّى فتح الباب، وقضى اليوم كله هناك، واليوم الذي بعده كذلك، فافتقده رُبّان السفينة، وسأل عنه.

أين المؤذن؟ أين إمامنا في الصلاة؟ أين ذلك الشاب الصالح، فلم يُجبه من البحارة أحدٌ، فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه، فوصل إلى علم الربان من ذهب به إلى ذلك المكان، فأحضره وزجره، وقال له: ألا تتقي الله؟! ألا تخشى عقابه؟! عجّل، اذهب فأحضره، فذهب إليه مرة بعد مرة، فلم يستطع إحضاره؛ لأنه كان يرفض ويأبى الرجوع معهم، فلم يكن من قائد السفينة إلاَّ أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسراً، فسحبوه بالقوة، وحملوه إلى السفينة.

قال الراوي: وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد، ومضى البحارة إلى أعمالهم، وأخذ الشاب في زاوية من السفينة يبكي، ويئن؛ حتّى لتكاد نياط قلبه أن تتقطع من شدّة

البكاء، ويُقدمون له الطعام فلا يأكل، وبقى على حاله البائسة هذه بضعة أيام، وفي ليلة من الليالي ازداد بكاؤه، ونحيبه، ولَمْ يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام، فجاءه رُبان السفينة، وقال له: يا هذا، اتقِ الله، ماذا أصابك، لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام، ويحك ما الذي بدل حالك؟ ويلك ما الذي دهاك؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر: دعني، فإنك لا تدري ما الذي أصابني. فقال الربان: وما الذي أصابك؟ وعند ذلك كشف الشاب عن عورته، وإذا الدود يتساقط من سوأته، فانزعج رُبّان السفينة وارتعش لما رأى، وقال: أعوذ بالله من هذا، وقام عنه الربان، وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم، وذهبوا إلى مصدرها، فوجدوا ذلك الشاب قد مات، وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه، استرجع القوم، وسألوا الله حسن الختام، وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر(1).

(1) من درس للشيخ أحمد القطان، وهي في أول كتيب السهم المسموم، ونقلناها من «رسالة عاجلة إلى المسلمين» (40 - 46).

6 - ومن أسباب سوء الخاتمة: تعلق القلب بغير الله عز وجل:

فمهما تعلق القلب بالله عز وجل، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، ومهما تعلق بغير الله، شقي في الدنيا والآخرة، ففي القلب فقر واضطرار إلى الله عز وجل، لا يسعد إلاّ بمعرفته، ولا يطمئن إلاّ بطاعته وعبادته وذكره، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: 28]، فإذا تعلق القلب بغير الله محبَّة، أو تواكلاً، أو خوفًا، أو رجاء، لابد أن يشقى العبد، قال النَّبيّ ﷺ: «**تعس عبد الدِّينار، وعَبْد الدِّرْهم، وعَبْدُ الخميصة، وعَبْدُ القطيفة..**» [1]، فالقلب يشقى بإعراضه عن الله عز وجل، وتعلقه بغيره.

أَنْتَ القَتيلُ بِكلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الْهَوَى مَنْ تَصْطَفي

---

(1) رواه البخاري (59/6) الجهاد، و(257/11) الرقاق.

وكذا تعلق القلب بغير الله عز وجل من أسباب سوء الخاتمة؛ ولذا نهى الله عز وجل أن يزداد حب العبد لابنه وأبيه، وأخيه، وزوجته، وماله؛ فيكون أكثر من حبه لله عز وجل أو لرسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: 24].

فلا يجوز للعبد أن يُعلّق قلبه بغير الله عز وجل؛ لأن ذلك قد يغلب على قلبه، ويشغل خاطره، فينشغل بذلك عن ذكر الله عز وجل، وعن لا إله إلاّ الله، وهذه بعض الأمثلة لمن غلب على قلبه محبة غير الله، فكان ذلك من أسباب سوء خاتمته.

يُروَى أن رجلاً علق بشخص، وأحبَّه، فتمنع عنه، واشتد نفاره، فاشتد قلق البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل

الوسائط تمشي بينهما، حتّى وعد بأن يعوده، فأُخبر بذلك ففرح، واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان في بعض الطريق رجع، وقال: والله، لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسي لمواقع التهم، فأخبر بذلك البائس المسكين، فسقط في يده، ورجع إلى أسوأ ما كان به، وبدت علامات الموت، وأماراته عليه، قال الراوي: فسمعته يقول، وهو في تلك الحال:

سَـلامٌ يا رَاحـةَ العَليلِ   وَبَردَ ذا الدنِّف[1] النَّحيل
رِضَاكَ أَشْهَى إلى فُؤادي   منْ رَحْمَةِ الخَالقِ الجَليل

قال: فقلت: يا فلان، اتقِ الله تعالى، فقال: قد كان ما كان.

فقمت عنه، فما جاوزت باب داره، حتّى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه، فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[2].

---

(1) الدنف: المرض الملازم لصاحبه، وتُطلق كثيراً على المريض من الحب، والهيام، نسأل الله السلامة.

(2) التذكرة (1/107-108).

وهذه قصة معاصرة، رواها الشيخ سعد البريك - بارك الله فيه - ، وهي قصة شاب من أولئك المنحرفين، الذين كانوا يُسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة، بينما كان في سكره، وغيه ينتظر خليلته، وقد تأخرت عليه، فما هي إلاَّ لحظات حَتَّى أقبلت عليه، فما رآها حتّى خرَّ ساجداً لها تعظيماً، ولمْ ينهض من تلك السجدة الباطلة إلاَّ وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة[1].

7 - التّسويف بالتوبة، والعمل الصالح:

فمن أضر الأمور على العبد أن يقول: سوف أتوب، وسوف أعمل صالحًا؛ فالتوبة واجبة على الفور، وتأخير التوبة ذنبٌ تجب التوبة منه؛ فالعبد قد يكون موقنًا بأن النجاة في التوبة، والاستقامة، ولكن الشيطان يقول له: إلى أن تكبر، أنت ما زلت شابًّا، فتمتّع بشبابك... فيستمر على المعاصي، وقد يخطفه الموت، وهو في ريعان الشباب،

(1) رسالة عاجلة إلى المسلمين (53).

وإذا عجز عن التوبة اليوم، فهو في المستقبل أعجز.

فمثل من يؤجل التوبة، والإقلاع عن الذنوب، كمثل من أراد أن يقلع شجرة من فناء داره، فوجدها راسخة الجذور في الأرض ثابتة، فقال: أعود إليها في العام المقبل، فأقتلعها، وما علم أن الشجرة في العام المقبل، سوف تزداد رسوخًا في الأرض، وسوف يزداد هو ضعفًا؛ كذلك شجرة الشهوات، كلما استمرّ العبد على المعاصي، وأكثر منها تزداد رسوخًا في أرض قلبه، ويزداد هو بالمداوم على المعاصي ضعفًا، فلا يزال العبد يزداد محبّة للشهوات، وضعفًا عن الإقلاع عنها، حتّى تنزل عليه الرسل.

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله -: واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة، فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها، وشهواتها من المعاصي، وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقّن الموت، وأيس من الحياة، أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فندم حينئذ على تفريطه ندامة، يكاد

يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا؛ ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يُجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت، مع حسرة الفوت.

وقد حذر الله في كتابه عباده من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة، والعمل الصالح قال تعالى: ﴿ **وأنيبوا إلىٰ ربكُمْ وأسْلمُوا لهُ من قبْل أن يأتيكُمُ الْعذابُ ثُمّ لا تُنصرُون (٥٤) واتّبعُوا أحْسن ما أُنزل إليْكُم مّن رّبّكُم مّن قبْل أن يأتيكُمُ الْعذابُ بغْتةً وأنتُمْ لا تشْعُرُون (٥٥) أن تقُول نفْسٌ يا حسْرتىٰ علىٰ ما فرّطتُ في جنب اللّه** ﴾ [الزمر: 54-56].

سُمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه، ويقول: ﴿ **يا حسْرتىٰ علىٰ ما فرّطتُ في جنب اللّه** ﴾ ، وقال آخر عند احتضاره: سَخِرت بي الدُّنيا، حتَّى ذهبت أيامي، وقال آخر عند موته: لا تَغرنَّكم الحياة الدنيا، كما غرّتني.

وقال تعالى: ﴿ **حتّىٰ إذا جاء أحدهُمُ الْموْتُ قال ربّ ارْجعُون (٩٩) لعلّي أعْملُ صالحًا فيما تركْتُ كلاّ إنّها كلمةٌ هُو قائلُها ومن ورائهم برْزخٌ إلىٰ يوْم يُبْعثُون** ﴾ [المؤمنون: 99-100].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: 10-11]، وقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: 54].

وفسّره طائفة من السلف، منهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله، بأنهم طلبوا التوبة حتى حيل بينهم وبينها، قال الحسن: اتقِ الله يا ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان، سكرة الموت، وحسرة الفوت، وقال ابن السماك: احذر السكرة، والحسرة أن يفجأك الموت، وأنت على الغرة، فلا يصف واصف قدر ما تلقى، ولا قدر ما ترى.

مات كثيرٌ من المصرين على المعاصي، على أقبح أحوالهم، وهم مباشرون للمعاصي، فكان ذلك خزيًا لهم في الدنيا، مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة، وكثيراً ما يقع هذا للمُصرّين على الخمر، المدمنين على شربها؛ كما قال القائل:

أتأمن أيُّها السَّكْرَانُ جهلاً   بأَنْ تَفْجَأَكَ في السُّكْرِ المَنيَّةُ
فَتَضْحَى عِبْرَةً للنَّاسِ طَرّاً   وَتَلْقى الله مِنْ شَرِّ البَرِيّة

سكر بعض المتقدمين ليلة، فعاتبته زوجته على ترك الصلاة، فحلف بطلاقها ثلاثًا، لا يصلي ثلاثة أيام، فاشتد عليه فراق زوجته، فاستمر على ترك الصلاة مدة الأيام الثلاثة، فمات فيها على حاله، وهو مصرٌّ على الخمر، تاركٌ للصلاة.

كان بعض المصرّين على الخمر، يكنى أبا عمرو، فنام ليلة، وهو سكران، فرأى في منامه قائلاً، يقول له:

جَدَّ بكَ الأَمْرُ أَبَا عَمْرو   وَأَنْتَ مَعْكُوفٌ على الخَمْرِ
تَشْرَبُ صَهْبَاءَ صَرَاحيَّةً   سَالَ بكَ السيل ولا تدْري

فاستيقظ منزعجًا، وأخبر من عنده بما رأى، ثم غلبه السُّكْر، فنام، فلما كان وقت الصبح، مات فجأة.

غاية أمنيَّة الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدُّنيا يُفرطون

في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير. يعني أن الموتى يتمنون حياة ساعة؛ ليتوبوا فيها، ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك[1].

(1) باختصار من لطائف المعارف، لابن رجب (353 - 355) ط. دار الجيل.

5 - علامات سوء الخاتمة

- نسأل الله العافية -

وهي كثيرة، نسأل الله العافية:

منها ما يكون عند الموت من التسخط على القدر، والكفر برب البشر، ومنها ما يكون قبل الدفن، ومنها ما يكون عند الدفن، ومنها ما يكون بعد ذلك، وقد رُوِيَتْ حكايات كثيرة من أحوال الناس في الدفن وفي القبور لا نقطع بصحة جميعها، ولكن نُشير إجمالاً بأنه يمكن لآحاد الناس أن يطلع على شيء من أحوال القبور في اليقظة والمنام، كما أشار إلى ذلك الأئمة الأعلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: قد سمع غير واحد أصوات المُعذَّبين في قبورهم، وقد شُوهد من يخرج من قبره، وهو يعذب[1].

(1) مجموع الفتاوى (256/5).

وقال: وقد انكشف لكثير من الناس ذلك، حتّى سمعوا أصوات المعذبين في قبورهم، ورأوهم بعيونهم، يُعذَّبون في قبورهم، في آثار كثيرة معروفة[1].

وقال أيضًا: قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظةً، ومنامًا، ويعلمون ذلك، ويتحققونه، وعندنا من أمور كثيرة[2].

وقال ابن القيم - رحمه الله - : رؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة، والجن تقع أحيانًا لمن شاء الله أن يريه ذلك[3].

وقال أيضًا :فإذا شاء سبحانه أن يُطْلعَ على ذلك بعض عبيده أطلعه، وغيّبه عن غيره[4].

وقال ابن رجب - رحمه الله - : قد أطلع الله من شاء

(1) مجموع الفتاوى (4/396) .

(2) مجموع الفتاوى (24/376) .

(3) الروح (93) .

(4) الروح (93).

من عباده، على كثير مما ورد في هذه الأحاديث، حتّى سمعوه، وشاهدوه عيانًا[1].

وقال أيضًا: وقد كشف لمن شاء من عباده من عذاب أهل القبور ونعيمهم، وقد وقع بعض ذلك في زمن النّبيّ ﷺ، ووقع بعده كثيرًا[2].

فرؤية أحوال أهل القبور من الغيب الذي يُطْلِعُ الله - عز وجل - عليه من شاء من خلقه، وقد ذكر كثيرٌ من العلماء جملاً مستفيضة، وحكايات غريبة فريدة لأحوال المقبورين؛ منهم ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «الروح» وابن رجب - رحمه الله - في «أهوال القبور» والسيوطي في «شرح الصدور»، فشأنها كشأن الإسرائيليات الّتي لا نقطع بصدقها، ولا بكذبها، مع إرساء هذا الأصل، وهو جواز وقوعها، والله أعلم.

---

(1) أهوال القبور (15).

(2) أهوال القبور (61).

علامات سُوء الخاتمة قبل الموت:

فبعضهم يقع عند اشتداد المرض في التسخط، والاعتراض على قضاء الله، أو الجحود، والكفر بـ« لا إله إلاّ الله »، أو يُصرح بأنه لا يستطيع أن ينطق بكلمة التوحيد، وأنه يُحال بينه، وبينها - والعياذ بالله -، أو يتكلم بكلام يُغضب الله - عز وجل -.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو عبد الرحمن اليماني، أنه لقَّنَ رجلاً ساعة الاحتضار شهادة أن لا إله إلاّ الله، فكان الرجل يُحرّك رأسه يمينًا، وشمالاً، وهو لا يتكلم، وكأنه يقول لي: لا لن أقولها[1].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو الحسن بن أحمد الفقيه، قال: نزل الموت برجل كان عندنا، فقيل له: استغفر الله، فقال: ما أريد. فقيل له: قل: لا إله إلاّ الله. فقال: ما

---

(1) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان، لأبي عبد الله عادل بن عبد الله السعيدان (45) الطبعة الأولى.

أقول لجهد جهده. ثم مات[1].

قال ابن الجوزي: وسمعت شخصًا آخر يقول – وقد اشتد به الألم –: ربي يظلمني. وهذه حالة إن لَمْ ينعم فيها بالتوفيق للثبات، وإلاَّ فالهلاك.

وهذا ما كان يُقلق سفيان الثوري؛ فإنه كان يقول: أخاف أن يشتد عليَّ الأمر، فأسأل التخفيف، فلا أُجاب، فأُفتتن[2].

ولاشكّ في أن من علامات سوء الخاتمة: أن يموت العبد على عمل يُغضب الله – عز وجل – ؛ فيكون ذلك خزيًا له، وفضيحة في الدنيا، مع ما ينتظره من خزي الآخرة، وعذابها، وقد ذكرنا أمثلة لذلك في أسباب سوء الخاتمة، فلا نطيل بذكر أمثلة أخرى – نسأل الله السلامة والعافية – .

قال ابن القيم – رحمه الله –: والحكايات في هذه كثيرة جدًا، فمن كان مشغولاً بالله، وبذكره، ومحبته في

---

(1) الثبات عند الممات، لابن الجوزي (80).

(2) الثبات عند الممات، لابن الجوزي (80).

حال حياته، وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته، فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت وما لَمْ يُدركه عناية ربه، ولأجل هذا، كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان؛ لأجل تلك اللحظة الَّتي إن فاتت شقي شقاوة الأبد – فنسأل الله أن يُعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته[1].

علامات سوء الخاتمة عند التغسيل:

قال في تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان: ولقد حدّثني عدد ممن يُغسلون الموتى، من مناطق مختلفة، عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات، والغريب في الأمر أنّهم يتفقون على صفات معيّنة يرونها على هؤلاء الموتى، وأكثر هذه الحوادث متشابهة؛ من ذلك أن الرجل الذي يموت على الخير يبدو وكأنه نائم، وأما من

---

(1) طريق الهجرتين (308 - 309) .

مات على خلاف ذلك، فيظهر عليه الفزع، وخوف الموت، مع تغير في وجهه، ولقد غسلت، وشاركتُ في التغسيل، ورأيت بعض ذلك، والحمد لله.

حدثني أحدهم، فقال: غسَّلت رجلاً، وكان لونه مصفراً، وفي أثناء التغسيل، أخذ لونه يتغيّر إلى السواد من رأسه، إلى وسطه، فلما انتهيت من التغسيل، فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء.

قال: وميتٌ آخر كان وجهه أثناء التغسيل متوجّهًا نحو كتفه الأيسر، فلما أرجعته نحو الكتف الأيمن، عاد إلى الجهة اليسرى، حتى لما وضعته في قبره، ووجهته نحو القبلة انصرف وجهه عنها إلى أعلى.

وحدَّثني مُغَسّلٌ آخر غسَّل رجلاً لونه مصفراً، فلما فرغوا من التَّغسيل اسودَّ وجه ذلك الرجل، فقلت له: أسود مثل لحيتي؟ قال: أسود كالفحم. قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر؛ كأنه يبكي الدم -- والعياذ بالله -- .

وحدَّثني مُغسِّلٌ آخر، فقال: دخلت ذات مرة على بعض الإخوان، وهم يُغسّلون ميّتًا فرأيت وجهه مسودًّا، كأنه قرص محترق، وجسمه أصفر، ومنظره مخيف، ثم جاء بعض أهله؛ لينظروا إليه، فلما رأوه على تلك الصورة، فروا هاربين، خوفًا منه[1].

علامات سوء الخاتمة عند الدفن:

قال في تذكرة الإخوان:

وأما ما ظهر عند الإنزال في القبر - والعياذ بالله - فحدّثني أحد المغسلين، فقال: غسّلتُ عددا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أني وجّهت أكثرمن مئة ميت، كلهم صُرِفَت وجوههم عن القبلة.

وحدَّثني مُغسّلٌ آخر، قال: عندما وضعت أحد الموتى في قبره، ووجهته نحو القبلة، رأيت وجهه قد تحول إلى أسفل، ودخل أنفه في التراب، ثم وجهته إلى القبلة، ووضعت تحت رأسه ترابًا، ولكنه عاد وأدخل أنفه في

(1) تذكرة الإخوان باختصار (47 - 48).

التراب، ثم وضعت رملاً أكثر في هذه المرة؛ حتى لا يعود، ولكنه عاد، وأدخل أنفه في التراب، ولمْ أَزل معه حتى تكرر الأمر خمس مرات، فلما يئست منه تركته، وأغلقت القبر[1].

قال أحد الفضلاء: كنّا في رحلة دَعْوية إلى الأردن، في ذات يوم وقد صلّينا الجمعة في أحد مساجد مدينة الزرقاء، وكان معنا بعض طلبة العلم، وعالمٌ من الكويت.

وبينما نحن جلوس في المسجد، وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعي، وهم يصيحون: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتي، فقالوا له: يا شيخ، عندنا شابٌ تُوُفي صباح هذا اليوم عن طريق حادث مروري، وإننا عندما حفرنا قبره، إذ بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم في القبر، ونَحن الان لم نضع الشاب، وما ندري كيف نتصرف.

---

(1) تذكرة الإخوان (48).

يقول الراوي: فقام الشيخ، وقمنا معه، وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا في القبر، فوجدنا فيه ثعبانًا عظيمًا قد التوى، رأسه في الداخل، وذنبه في الخارج، وعينه بارزة يطالع الناس.

قال الراوي: فقال الشيخ: دعوه، واحفروا له مكانًا آخر.

يقول: فذهبنا على مكان آخر بعد القبر الأول بمائتي متر تقريبًا، فحفرنا، وبينما نحن في نهايته، إذا بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول، فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض، وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا، ورابعًا سيخرج الثعبان، فما لنا حيلة إلاَّ أن نُحاول إخراجه.

يقول الراوي: فجئنا بأسياخ، وعصيٍّ، فانحمل معنا، وخرج من القبر، وجلس على شفيره، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعرٌ وخوفٌ، حتَّى إن بعضهم حصل له إغماء، فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن، ومنعوا الاتصال بالقبر إلاّ عن طريق العلماء، وذوي الميت.

يقول الراوي: « وبينما جيء بالجنازة، وأُدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة، ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر، فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت، وبدأ من رجليه، حَتّى وصل رأسه، ثم اشتدّ عليه، فحطّمه. يقول الراوي: إنّا كنّا نسمع تحطيم عظامه، كما تحطم حزمة الكرات.

يقول الراوي: « ثم لما هدأت الغبرة، وسكن الأمر جئنا؛ لننظر في القبر، وإذا الحال كما هي عليه، من تلوي ذلك الثعبان على الميت، وما استطعنا أن نفعل شيئًا ».

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه، ثم ذهبنا إلى والده، فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان لا يصلي – نعوذ بالله من سوء الخاتمة – »[1].

---

(1) رسالة عاجلة إلى المسلمين (46 - 50) وقال المصنِّف: سمعتها من الشيخ سعيد بن مسفر – ثبّتنا الله وإياه – .

وقد ورد في تذكرة القرطبي قصة مشابهة:

قال القرطبي - رحمه الله - : «وأخبرني صاحبنا الفقيه العالم أبو عبد الله، مُحمّد بن أحمد القصري - رحمه الله - أنه توفي بعض الولاة بقسطنطينة، فحفر له، فلما فرغوا من الحفر، وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر، إذا بحيّة سوداء داخل القبر، فهابوا أن يدخلوه فيه، فحفروا له قبرًا آخر، فإذا بتلك الحية، فلم يزالوا يحفرون له نحوًا من ثلاثين قبرًا، وإذا بتلك الحية، تتعرض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه، فلما أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها. - نسأل الله السلامة، والستر في الدنيا والآخرة -»[1].

علامات سوء الخاتمة بعد الدفن:

فمن ذلك قصة الرجل الذي نبذه القبر في عهد النبوة:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان منّا رجلٌ من بني النجار، قد قرأ البقرة، وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله

(1) التذكرة (170/1).

ﷺ، فانطلق هاربًا حَتَّى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد ﷺ.

فأعجبوا به، فما لبث أن قسم الله عنقه فيهم، فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذًا[1].

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم - رحمه الله - قال: حدثني صاحبنا أبو عبد الله، مُحمّد بن الوزير الحراني، أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان، قال: فلما كان بعد غروب الشمس توسطت القبور، فإذا بقبر منها، وهو جمرة نار، مثل كوز الزجاج، والميت في وسطه، فجعلت أمسح عيني، وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة، وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلى أهلي

(1) رواه البخاري (624/6) الأنبياء، وأحمد (222/3).

وأنا مدهوش، فأتوني بطعام، فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد، فسألت عن صاحب القبر، فإذا به مكّاس قد تُوفي ذلك اليوم[1].

(1) الروح (98).

6 - أسباب حسن الخاتمة

1 - من أسباب حسن الخاتمة تقوى الله - عز وجل -:

قال الله تعالى: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللَّه حقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مُسلمُون** ﴾ [آل عمران: 102].

فتقوى الله - عز وجل - من أعظم أسباب حسن الخاتمة، والموت على الإسلام.

والتقوى: هي علم القلب بقرب الرب.

والتقوى: أن تترك ما تَهوى، لما تخشى.

والتقوى: هي الإحسان، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَمْ تكن تراه، فتعلم أن الله يراك، فمهما كان العبد مستشعراً لإطلاع الله - عز وجل - على قلبه، ومهما كان مؤثراً لمراد الله - عز وجل - مُحبًّا لشرعه، فإن الذي يغلب على قلبه في حال السكرات حبه لله - عز وجل - وإيثاره لمرضاته، فيسهل عليه أن ينطق بشهادة الحق،

والتقوى هي أعلى درجات الإيمان، وقد وعد الله - عز وجل - أهل الإيمان بالتثبيت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

فقال تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: 27].

كما وعد الله - عز وجل - أهل التقوى بالمخرج من كل ضيق، فقال - عز وجل - : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق :2-3].

ولا شكّ أن العبد في حال السكرات في شدّة، وحرج، والمخرج والنجاة في الذكر، والطاعة، والنطق بكلمة التوحيد، كما وعد الله - عز وجل - المتقين باليسر بعد الشدة، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** ﴾ [الطلاق: 4].

فنسأل الله أن يُيسر علينا السكرات، وأن يوفقنا للطاعات في الحياة، وعند الممات، إنه وليّ ذلك، والقادر عليه، والله الهادي.

2 - من أسباب حسن الخاتمة: الاستقامة:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

وقال النَّبيّ ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بالله ثُمَّ استقم**» (1).

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - :

والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة، ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها؛ الظاهرة، والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها، وفي قوله عز وجل: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: 6]. إشارة إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة، والرجوع إلى الاستقامة، فهو كقول النَّبيّ ﷺ لمعاذ: «**اتق**

---

(1) رواه الترمذي (155/8) عارضة، البرّ، وأحمد (185/5) وقال الترمذي: هذا حسن صحيح، وحسّنه الألباني (1618) صحيح الترمذي.

الله حيثما كنت، وأتبع السَّيئة الحسنة تَمْحُها»، وقد أخبر النبيّ ﷺ أن الناس لن يطيقوا الاستقامة حق الاستقامة.

كما خرّجه الإمام أحمد، وابن ماجه، من حديث ثوبان عن النبيّ ﷺ قال: «**استقيموا، ولَنْ تُحْصوا، واعْلَموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوضوء، إلاَّ مؤمن**»[1]، فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد؛ كما فسّر أبو بكر الصديق، وغيره قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [الأحقاف: 13]، بأنهم لَمْ يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإنّ القلب هو

---

(1) رواه مالك في الموطأ (34/1) الطهارة بلاغًا، ورواه ابن ماجه (277) الطهارة، والدارمي (168/1)، والحاكم (130/1)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولست أعرف له علة، وصححه الألباني بطرقه، الإرواء (412).

مالك الأعضاء، وهي جنوده؛ فإذا استقام الملك استقامت جنوده، ورعاياه[1].

والخلاصة: أن أهل الاستقامة هم الذين تنزل عليهم ملائكة الله - عز وجل - عند الموت بالبشارة بالجنة، والنجاة من النار، إشارة إلى أنهم يوفقون للخاتمة الحسنة، التي تكون سببًا في دخول الجنة، والنجاة من النار - نسأل الله من فضله العظيم، وخيره العميم.

3 - ومن أسباب حسن الخاتمة: الصدق:

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ [التوبة: 119]، ووصف الله - عز وجل - المهاجرين، الذين هم أشرف الصحابة ﷺ بالصدق، فقال تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون**﴾ [الحشر: 8]، فهم أصدق الناس

---

(1) جامع العلوم والحكم باختصار (510/1-512) بتحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، ط. مؤسسة الرسالة.

إيمانًا، وأصدقهم في القول والعمل؛ فالصدق من أعظم أسباب حسن الخاتمة.

عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب، جاء إلى النبيّ ﷺ فآمن به، واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النّبيّ ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة، غنم النّبيّ ﷺ، سبيًا فقسَّم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النّبيّ ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النّبيّ ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «**قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمى ها هنا (وأشار إلى حلقه) بسهم، فأدخل الجنة، فقال: «**إن تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقك**».

فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتى به النّبيّ ﷺ يُحمَلُ، قد أصابه السهم حيث أشار، فقال النّبيّ ﷺ: «**أهو هُوَ؟**» قالوا: نعم. قال: «**صدق الله فصَدَقَهُ**».

ثم كفنه النّبيّ ﷺ، في جبة النّبيّ ﷺ، ثم قدمه،

فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبْدُك، خرج مُهاجِراً، فَقُتل شهيداً، أنا شهيدٌ على ذلك**»[1].

فالعبد إذا صدق في إيمانه، وفي أقواله، وأفعاله يوفق لحسن الخاتمة، وينال سعادة العاجلة والآجلة.

4 - ومن أسباب حسن الخاتمة: ذكر الموت، وزيارة القبور:

قال النّبيّ ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»[2]، أي: نغصوا بذكر الموت لذات الدنيا، وشهوات النفوس؛ حتّى ينقطع ركونكم إلى هذه الدنيا، الزائفة الزائلة، وحتّى تسعوا للآخرة سعيها.

ولا شك في أن تذكرة الآخرة، يَجعل المسلم على

---

(1) رواه النسائي (4/60-61) الجنائز، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي رقم (1845).

(2) رواه الترمذي (9/187) الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ والنسائي (4/4) الجنائز، وابن ماجه (4285) الزهد، والحاكم (4/321) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولَمْ يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني بشواهده.

استعداد للقاء الله – عز وجل – بالتوبة، والعمل الصالح، وذلك أقرب لحسن الخاتمة.

قال في مختصر التذكرة: واعملوا أيها الإخوان، أن القلب القاسي يلين بأمور، منها: زيارة القبور، وحضور مجالس الوعظ، والصالحين، وسماع أخبار من مضى من العباد والزهاد، ومنها ذكر الموت الذي هو هادم اللذات، أي قاطعها، ومُفرّق الجماعات، بعد رغد عيشها، وميتّم البنين، والبنات بعد عزهم بوالديهم.

وقال: ومن فوائد ذكر الموت أيضًا ردع الإنسان عن ارتكاب المعاصي، وترك الفرح بالدنيا، وتهوين المصائب فيها، وتأمل يا أخي، أن من ثبت عليه ما يوجب القود، ثم سحب إلى القتل لا يصير له داعية إلى فعل شيءٍ من المعاصي، ولا نظر لشيء من زينة الدنيا، وشهواتها، وتَهون عليه كل مصيبة بخلاف من كان طويل الأمل، فإنه يكون بالضد من ذلك.

ومنها – أي من الأمور المذهبة لقساوة القلب – :

مشاهدة المحتضرين؛ فإن النظر إلى سكراتهم، ونزعاتهم، ومعالجتهم في طلوع الروح، وشدة كربهم أعظم عبرة، فإن الإنسان عن قريب يقع له مثل ذلك، ومن لمْ يتَعظ بالموتى، فلا تنفعه موعظة[1].

5 - ومن أسباب حسن الخاتمة: حسن الظن بالله - عز وجل - عند الموت، وعلى كل حال:

قال الله - عز وجل - في الحديث القدسي: «**أنا عنْد ظَنّ عبْدي بي**»[2].

وعن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: «**لا يمُوتنَّ أَحدُكمْ إلا وهُو يحْسنُ الظَّنَّ بالله**»[3].

قال ابن الجوزيّ: فليجعل المريض حُسن الظن بالله

---

(1) نقلاً عن البحر الرائق (262).

(2) رواه البخاري (384/13) التوحيد، ومسلم (12/17) فضل الذكر، والترمذي (234/9) عارضة، الزهد.

(3) رواه مسلم (209/17) صفة الجنة، وأبو داود (2097) الجنائز.

شعاره ودثاره، وليقوّ نفسه رجائه؛ فإن الخوف سوطٌ تُساقُ به النفس إلى الجدّ، وما بقي في الناقة موضعٌ لسوطٍ، إنما حسن الظن جداً.

وعن أنس أن النّبيَ ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدُك؟**» قال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجْتمعان في قلْب عبْد، في مثْلِ هذا الموطنِ إلاّ أعْطاهُ الله ما يرْجُوهُ، وأمَّنهُ ممَّا يخافُ..**»(1).

قال حيان أبو النضر: دخلت مع واثلة بن الأسقع، على أبي الأسود الجرشي في مرضه الذي مات فيه، فسلم عليه، وجلس، قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه، لبيعته بها رسول الله ﷺ، فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟.

قال: وكيف ظنّك بربك، فقال أبو الأسود، وأشار

(1) رواه ابن ماجه (4261) الزهد، وحسّنه الألباني في الصحيحة، رقم (1051).

برأسه؛ أي: حسن. قال واثلة: أبشر؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظنِّ عَبْدي، فليظنَّ بي ما شاء**»[1].

عن المعتمر بن سليمان، قال: قال أبي حين حضرته الوفاة: يا معتمر، حدثني بالرخص؛ لعلّي ألقى الله، وأنا حسن الظن به، وعن إبراهيم قال: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن علمه عند موته، لكي يُحسن ظنه بربه[2].

6 - ومن أسباب حسن الخاتمة: المبادرة بالتوبة إلى الله - عز وجل - وردُّ المظالم:

قال الله تعالى: ﴿ **وتُوبُوا إلى الله جميعًا أيُّها المُؤْمنُون لعلَّكُمْ تُفْلحُون** ﴾ [النور: 31].

وقال: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا تُوبُوا إلى الله توْبةً نَّصُوحًا عسىٰ**

(1) الثبات عند الممات باختصار (67-68).

(2) كتاب «المحتضرين» لابن أبي الدنيا، بتحقيق مُحمد خير رمضان يوسف (39-40) دار ابن حزم.

رَبُّكُمْ أن يُكفِّرَ عنكُمْ سيِّئاتكُمْ ويُدْخِلكُمْ جنَّاتٍ تجْري من تحْتها الأَنْهارُ﴾ [التحريم: 8].

وقال النّبيّ ﷺ : «**إن الله - عز وجل - يقْبلُ توْبة العبْد ما لمْ يُغرْغرْ**»[1].

وشروط التوبة ستة، وهي:

1 ـ الإخلاص.

2 ـ الإقلاع عن الذنوب.

3 ـ الندم على فعلها.

4 ـ العزم على عدم العود.

5 ـ رد المظالم؛ لقوله ﷺ : «**منْ كان لأخيه عندهُ مظلمةٌ، منْ مالٍ أوْ عرضٍ، فليتحلَّلْهُ اليوْم منْ قبْل ألاَّ يكُونَ دينارٌ، ولا درْهمٌ إلاَّ الحسناتُ، والسَّيِّئاتُ**».

---

(1) رواه الترمذي (58/13) عارضة، الدعوات، وأحمد (6160) شاكر، وابن ماجه (4253)، والحاكم (257/4) التوبة، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، وحسّنه الألباني.

6 – أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهو قبل طلوع الشمس من مغربها، وكذا قبل الغرغرة، أي حشرجة الموت.

فمن بادر بالتوبة قبل حشرجة الموت، حسنت خاتمته، وعاقبته، ومن اختطفه الموت قبل التوبة، أحاطت به الحسرة، والندامة، وكان من المفرطين – فنسأل الله أن يوفقنا لتوبة نصوح قبل الممات.

فالبدار البدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يُجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء، واختبارهم، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتَحقُّ الكلمة عليه أنه من أصحاب الجحيم.

7 – **ومن أسباب حسن الخاتمة الحذر من أسباب سوء الخاتمة: وقد ذكرنا من ذلك آنفاً:**

1 – فساد المعتقد، والتعبد بالبدع.

2 – مخالفة الباطن للظاهر.

3 – إلف المعاصي، والإصرار عليها.

4 ـ حب الدنيا .

5 ـ العدول عن الاستقامة .

6 ـ تعلق القلب بغير الله .

7 ـ التسويف بالتوبة .

7 - علامات حسن الخاتمة (1)

ثمَّ إنَّ الشارع الحكيم قد جعل علامات بيِّنات، يُسْتَدَلَ بها على حسن الخاتمة، كتبها الله تعالى لنا بفضله، ومَنِّه، فأيما امرئ مات بإحداها، كانت بشارة له، ويا لها من بشارة.

الأولى - نطقه عند الموت بلا إله إلاَّ الله:

1 - «**مَنْ كان آخرُ كلامه لا إلهَ إلاَّ الله، دخَل الجنَة**» (2).

2 - وعن طلحة بن عبيد الله قال: «رأى عمر طلحة ابن عبيد الله ثقيلاً، فقال: ما لك يا أبا فلان؟ لعلك ساءتك امرأة عمك يا أبا فلان؟ قال: لا (وأثنى على أبي بكر) إلاَّ أنني سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا ما منعني أن أسأله عنه، إلاَّ القدرة عليه، حتّى مات؛ سمعته يقول: «**إنّي لأعْلم كلمةً لا يقولها عبدٌ عند موته، إلاَّ أشْرق لها لوْنُهُ،**

---

(1) هذا الفصل مختصر من كتاب «أحكام الجنائز» للألباني رحمه الله (34 - 43) المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة.

(2) رواه أبو داود (3100) عون، والحاكم (351/1) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في الإرواء، رقم (686).

ونفَس الله عنه كربتُهُ»، فقال عمر: إني لأعلم ما هي. قال: وما هي؟ قال: تعْلَمُ كلمةً أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلاّ الله؟ قال طلحة: صدقت، هي والله، هي[1].

الثانية - الموت برَشْح الجَبين:

لحديث بريدة بن الحصيب أنه كان بخراسان، فعاد أخًا له، وهو مريض، فوجده بالموت، وإذا هو يعرق جبينه، فقال: الله أكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَوْتُ المؤمن بعرق الجبين..**»[2].

الثالثة - الموت ليلة الجمعة أو نهارها:

لقوله ﷺ: «**ما منْ مُسْلم يمُوتُ يوْمَ الجمعة، أوْ ليْلَةَ الجمعة، إلاّ وقاهُ الله فتنة القبر...**»[3].

---

(1) رواه أحمد (1384) شاكر، والحاكم (350/1 - 351) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(2) رواه أحمد (357/5 - 360) والنسائي (6/4)، والترمذي (982) وحسنه، والحاكم (361/1)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(3) رواه أحمد (6582) شاكر، وقال الألباني: وله شواهد عن أنس وجابر، فالحديث بمجموع طرقه حسن، أو صحيح.

الرابعة - الاستشهاد في ساحة القتال:

قال تعالى: ﴿ **ولا تحسبنَّ الَّذين قُتلُوا في سبيل اللَّه أمْواتًا بلْ أحْياءٌ عند ربهمْ يُرْزقُون (١٦٩) فرحين بما آتاهُمُ اللَّهُ من فضْله ويسْتبْشرُون بالَّذين لمْ يلْحقُوا بهم مّنْ خلْفهمْ ألاَّ خوْفٌ عليْهمْ ولا هُمْ يحْزنُون (١٧٠) يسْتبْشرُون بنعْمةٍ مّن اللَّه وفضْلٍ وأنَّ اللَّه لا يُضيعُ أجْر الْمُؤْمنين** ﴾ [آل عمران: 169 - 171].

وفي ذلك أحاديث:

1 - «**للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أوَّل دُفْعةٍ من دمه، ويرى مقعدَهُ من الجنة، ويُجارُ من عذاب القبْرِ، ويأمنُ الفزعِ الأكْبرِ، ويُحلَّى حُلْيةُ الإيمان، ويُزوَّجُ من الحور العين، ويُشفَّعُ في سبْعين إنسانًا من أقاربه..**»[1].

2 - «وعن رجل من أصحاب النّبيّ ﷺ أن رجلاً، قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفْتَنونَ في قُبورهم إلاّ الشهيد،

(1) رواه الترمذي (161/7) فضائل الجهاد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (2799) واللفظ له، وأحمد (131/14) وصححه الألباني.

قال: «كَفَى ببارِقَةِ السُّيُوفِ عَلى رأسِه فِتْنَةً» [1].

الخامسة - الموت غازيًا في سبيل الله، وفيه حديثان:

1 - «**ما تَعُدُّونَ الشَّهيدَ فيكُمْ؟**» قالوا: يا رسُولَ الله، مَنْ قُتِلَ في سبيل الله، فَهُوَ شَهيدٌ، قال: «**إن شُهداءَ أُمَّتي إذَنْ قليلٌ**» قالوا: فَمَنْ هُمْ يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ قُتِل في سبيل الله، فَهُوَ شهيدٌ، ومَنْ مات في سبيل الله، فَهُوَ شَهيدٌ، ومَنْ مات في الطَّاعون فهو شهيد، والْغَريقُ شَهيدٌ ..**»[2].

وفي الباب عن عمر عند الحاكم، والبيهقي.

2 - «**مَنْ فَصَلَ** (أي خرج في سبيل الله) **فماتَ أو قُتِل، فَهُوَ شَهيدٌ، أو وَقَصَتْهُ فرسُهُ، أو بَعيرُهُ، أو لَدَغَتْهُ هامةٌ، أوْ ماتَ على فِرَاشِه بأيِّ حتفٍ شاء الله، فإنَّهُ شهيدٌ، وإنَّ لَهُ الجنَّة**»[3].

---

(1) رواه النسائي (99/4) الجنائز، وقال الألباني: وسنده صحيح.

(2) رواه مسلم (1915) الأمارة؛ وأحمد (310/2) .

(3) رواه أبو داود (2482) عون الجهاد، والحاكم (78/2) الجهاد، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولَمْ يخرجاه، وحسّنه الألباني.

السادسة - الموت بالطاعون: وفيه أحاديث:

1 - عن حفصة بنت سيرين، قالت: قال لي أنس بن مالك: بِمَ مات يحيى بن أبي عمرة؟ قلت: بالطاعون. فقال: قال رسول الله ﷺ: «**الطَّاعونُ شَهَادةٌ لكُلِّ مُسْلم**»[1].

2 - وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها نبي الله ﷺ أنه «**كان عذابًا يبعثُهُ الله على مَنْ يَشاءُ، فجَعَلَهُ الله رحمةً للمؤمنينَ، فَلَيْس من عَبْد يَقَعُ الطَّاعون، فيَمْكُثُ في بَلَده صابرًا، يَعْلَمُ أنّه لنْ يُصيبُهُ إلاّ ما كَتَبَ الله له إلاّ كان له مثْلُ أجْر الشَّهيد**»[2].

3 - «**يأتي الشُّهداء، والمُتَوَفَّون بالطاعون، فيقول أصحابُ الطَّاعون: نَحْنُ شُهدَاءٌ، فَيُقالُ: انظُرُوا؛ فإن كانت جراحُهُم كَجراحِ الشُّهَداء، تسيلُ دَمًا ريحُ المسْك، فهم شُهداء، فيجدونهم كذلك**»[3].

---

(1) رواه البخاري (190/10) الطب، وأحمد (150/3، 220، 223، 258).

(2) رواه البخاري (202/10، 203) الطب، وأحمد (64/6، 541، 252).

(3) رواه أحمد (185/4) والطبراني في الكبير، وحسّنه الحافظ في الفتح (205/10).

السابعة - الموت بداء البطن، وفيه حديثان:

1 ـ «**ومن ما في البطن فهو شهيد**» [1].

2 ـ عن عبد الله بن يسار قال: كنت جالساً، وسليمان ابن صرد، وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلاً توفي، مات ببطنه، فإذا هُما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهم للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَقْتُلُهُ بَطْنُهُ، فلن يُعذَّبَ في قبره**» فقال الآخر: بلى. وفي رواية: صدقت[2].

الثامنة، والتاسعة - الموت بالغرق، والهدم لقوله ﷺ:

«**الشُّهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله**» [3].

---

(1) رواه مسلم (1915) الأمارة، وأحمد (310/2).

(2) رواه النسائي (98/4) الجنائز، وأحمد (4 م 262)، وقال الألباني: وسنده صحيح.

(3) رواه البخاري (50/6) الجهاد، والسير، ومسلم (1914) الأمارة.

العاشرة - موتُ المرأة في نفاسها بسبب ولدها:

لحديث عبادة بن الصامت «أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة، قال: فما تحوز له عن فراشه، فقال: «**أتدري من شهداء أمتي؟**» قالوا: قتل المسلم شهادة، قال: «**إن شهداء أمتي إذن لقليل؛ قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها، جمعاء شهادة** (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»[1].

الحادية عشرة، والثانية عشر - الموت بالحرق وذات الجنب:

وفيه أحاديث أشهرها عن جابر بن عتيك مرفوعًا: «**الشهداء سبعة، سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة**»[2].

---

(1) رواه أحمد (201/4)، (323/5)، والدارمي (208/2) وقال الألباني: وإسناده صحيح.

(2) رواه مالك في الموطأ (233/1، 234) الجنائز، والنسائي (13/4، 14) الجنائز، وأبو داود (3095 عون) الجنائز، وقال الألباني: ولست أشك في صحة متنه؛ لأن له شواهد كثيرة، تقدم أكثرها.

الثالثة عشرة - الموت بداء السلّ؛ لقوله ﷺ:

«**القتل في سبيل الله شهادة، والنفساء شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والسلُّ شهادة، والبطن شهادة**»[1].

الرابعة عشرة - الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه، وفيه أحاديث:

1 ـ «**من قُتل دون ماله**»، وفي رواية: «**من أُريد ماله بغير حق، فقاتل فقُتل فهو شهيد**»[2].

2 ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يُريد أخذ مالي؟ قال: «**فلا تعطه مالك**» قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قتلني؟! قال: «**فأنت شهيد**»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «**هو في النار**»[3].

---

(1) ذكره الهيثمي في «المجمع» (317/2)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه مندل ابن علي، وفيه كلام كثير، وقد وثق، وقال الألباني: ويشهد له حديث راشد بن حبيش.

(2) رواه البخاري (147/5) المظالم (116/7) الجنائز.

(3) رواه مسلم (140) الإيمان، والنسائي (114/7) الجنائز.

3 – عن مخارق ﷺ قال: «جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ، فقال: الرجل يأتيني فيُريد مالي؟ قال: «**ذكِّرْهُ بالله**»، قال: فإن لَمْ يذكر؟ قال: «**فاستعن عليه من حولك من المسلمين**»، قال: فإن لَمْ يكن حولي أحدٌ من المسلمين؟ قال: «**فاستعن عليه السلطان**». قال: فإن نأى السلطان عني وعجل عليَّ؟ قال: «**قاتل دون مالك؛ حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمْنَع مالك**»[1].

الخامسة عشرة، والسادسة عشر - الموت في الدفاع عن الدين والنفس، وفيه حديثان:

1 – «**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد**»[2].

---

[1] رواه النسائي (7/113-114) الإيمان والنذور، وأحمد (5/294،295) وقال الألباني: وسنده صحيح.

[2] رواه أبو داود (4746 عون) السنة، والترمذي (1421) الديات، وقال: هذا حديث حسن صحيح، و النسائي (7/116) الإيمان والنذور، وأحمد (1628 شاكر) وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح.

2 - «من قُتلَ دون مظلمته فهو شهيد»[1].

السابعة عشرة: الموتُ مرابطًا في سبيل الله، ونذكر فيه حديثين:

1 - «رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عملُهُ الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأَمِنَ الفَتَّان»[2].

2 - «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عَمَلِه إلاّ الذي مات مُرابطًا في سبيل الله، فإنّه يُنمى له عَمَلُهُ إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر»[3].

---

(1) رواه النسائي (117/7) الإيمان والنذور، وأحمد (2780 شاكر)، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو في مجمع الزوائد (244/6) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(2) رواه مسلم (1912) الإمارة، والترمذي (1665)، فضائل الجهاد، والنسائي (39/6) الجهاد.

(3) رواه أبو داود (2483 عون) الجهاد، والترمذي (1621) فضائل الجهاد، وقال: حديث صحيح، والحاكم (144/2) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأحمد (20/6).

الثامنة عشرة - الموت على عمل صالح، لقوله ﷺ:

«من قال : لا إله إلاَّ الله ابتغاء وجه الله، خُتِمَ له بها دخل الجنة، ومَنْ صامَ يوْمًا ابتغاء وجه الله، خُتِمَ له بها دخل الجنة، ومن تصدَّق بصدقة ابتغاء وجه الله، خُتِمَ له بها دخل الجنة»[1].

(1) رواه أحمد (391/5) قال الألباني : وإسناده صحيح، وقال المنذري : لا بأس به.

8 - أمثلة لحسن الخاتمة

أ - أمثلة لحسن الخاتمة من السلف رضي الله عنهم

1 – **معاذ بن جبل** رضي الله عنه :

لما طُعن معاذ، فقال حين النّزْع، ونزع نزعًا شديدًا لم ينزعه أحد فكان كلّما أفاق من غمرةٍ، فتح طرفه، ثم قال: رب اخنقني حنقك، فوَعزَّتكَ إنّك لتعلم أن قلبي يُحبك.

وعن عمرو بن قيس، عمن حدّثه، عن معاذ بن جبل، قال لما حضره الموت: «مرحبًا بالموت زائرًا، مُغب حبيبٌ على فاقة، اللّهمّ، كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لَمْ أكن أحب الدنيا، وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء عند حلق الذكر»[1].

---

(1) حلية الأولياء (239/1) الزهد، للإمام أحمد (180)، والثبات عند الممات (118-119).

2 - **أنس بن مالك** رضي الله عنه :

عن أنس بن سيرين، قال: شهدت أنس بن مالك، وحضره الممات، فجعل يقول: لَقّنوني: لا إله إلاّ الله، فلم يزل يقولها، حَتَّى قُبض - رحمه الله -[1].

3 - **مُجاهد بن جبير - رحمه الله -** :

قال الفضل بن دكين: مات مجاهد، وهو ساجد[2].

4 - **مُحمّد بن المنكدر - رحمه الله -** :

أتى صفوان بن سليم إلى مُحمّد بن المنكدر، وهو في الموت، فقال: يا أبا عبد الله، كأني أراك قد شقَّ عليك الموت، فما زال يهون عليه الأمر، وينجلي عن مُحمّد، حتّى لكأنّ وجهه المصابيح، ثم قال له محمّد: لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك[3].

---

(1) الثبات عند الممات (133) .

(2) الثبات عند الممات (138) .

(3) الثبات عند الممات (141-142) .

5 - رجلٌ من الصدر الأول:

عن الحسن قال: احتضر رجلٌ من الصدر الأول، فقال لابنه: اقعد عند رأسي، فَلَقِّنِّي لا إله إلاّ الله، بها أرجو نجاة نفسي، لا إله إلاّ الله، ثم قضى [1].

6 - مطرف بن عبد الله بن الشخير:

عن عبد الله بن مسلم العبدي، قال: قال مطرف لما حضره الموت: اللهم خرْ لي في الذي قضيته عليَّ من أمر الدنيا، والآخرة.

قال: وأمرهم بأن يَحملوه إلى قبره، فختم فيه القرآن قبل أن يموت[2].

7 - حسَّان بن أبي سنان - رحمه الله- :

عن عاصم بن قرهل، قال: دخلنا على حسان بن أبي سنان، وقد حضره الموت، فقال له بعض إخوانه: أتجد كربًا

---

(1) الثبات عند الممات (145).

(2) المحتضرين لابن أبي الدنيا (156).

شديداً؟ فبكى ثم قال: إن ذلك. ثم قال: ينبغي للمؤمنين أن يسلو عن كرب الموت، وألمه؛ لما يرجعون من السرور في لقاء الله – عز وجل – [1].

8 – أبو بكر بن أبي مريم – رحمه الله –:

عن يزيد بن عبد ربه، قال: عدت أبا بكر بن أبي مرسم، وهو في النزع، فقلت له: رحمك الله، لو جرعت جرعة ماء؟ فقال بيده: لا.

ثم جاء الليل، فقال: أُذّنَ؟ فقلت: نعم، فقطرنا في فمه قطرة ماء، ثم مات[2].

9 – آدم بن أبي إياس العسقلاني – رحمه الله –:

قال أبو علي المقدسي: لما حضرت آدم بن رياس الوفاة، ختم القرآن، وهو مُسجَّى، ثم قال: بحبي لك، إلاَّ رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت

---

(1) الثبات عند الممات (151).

(2) الثبات عند الممات (152).

أرجوك. ثم قال: «لا إله إلاّ الله» ثم قضى[1].

10 - **أبو زرعة الرازي - رحمه الله -:**

قال أبو جعفر التستري: حضرنا أبو زرعة، وكان في السّوق، وعنده أبو حاتم، ومُحمّد بن مسلم، والمنذر بن شاذان، وجماعة من العلماء، فذكروا حديث التلقين، وقوله ﷺ: «**لَقِّنوا مَوْتَاكم لا إله إلاّ الله**».

فاستحيوا من أبي زرعة، فقالوا: تعالوا نذكر الحديث، فقال محمد بن مسلم: حدثنا الضحاك بن مخلد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، ولَمْ يُجاوز، والباقون سكوت، فقال أبو زرعة، وهو السَّوق: حدّثنا بُنْدَار قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، عن أبي عريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلاّ الله، دخل الجنة» وتوفّى رحمه الله[2].

(1) الثبات عند الممات (159).

(2) الثبات عند الممات (161-162).

11 - أبو حكيم الخبري - رحمه الله - :

حدث أبو الفضل بن ناصر، عن جده أبي حكيم الخبري، أنه كان قاعداً ينسخ، فوقع القلم من يده، وقال: إن كان هذا موتًا، فوالله إنه موت طيب، فمات[1].

12 - عبد الله بن المبارك - رحمه الله - :

قيل: فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة، وضحك. وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون[2].

13 - العلاء بن زياد العدوي:

عن زهير بن أبي عطية، قال: لما احتضر العلاء بن زياد العدوي، بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: كنت والله أحبّ أن أستقبل الموت بالتوبة. قال: فافعل – رحمك الله – قال: فدعا بطهور، فتطهر، ثم دعا بثوب له جديد، فلبسه، ثم استقبل القبلة، فأومأ برأسه مرتين، أو نحو ذلك، ثم أضجع، فمات[3].

(1) الثبات عند الممات (176) .

(2) نقلاً عن البحر الرائق (272) .

(3) المحتضرين لابن أبي الدنيا (126) .

14 - أبو حامد الغزالي - رحمه الله - :

قال أخوه أحمد : لما كان يوم الإثنين، وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد، وصلّى، وقال : عليّ بالكفن، فأخذه وقبّله، وتركه على عينيه، وقال : سمعًا وطاعة، الدخول على الملك. ثم مد رجليه واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار[1].

15 - أبو بكر بن حبيب - رحمه الله - :

قال ابن الجوزي : سمع الحديث، وتفقه، وكان يُدرّس، ويعظ، وكان نِعْمَ المؤدب، فلما احتضر، قال له أصحابه : أوصنا. فقال : أوصيكم بثلاث : بتقوى الله - عز وجل - ، ومراقبته في الخلوة، واحذروا مصرعي هذا، فقد عشتُ إحدى وستين سنة، وما كأني رأيت الدنيا. ثم قال لبعض إخوانه : انظر، هل ترى جبيني يعرق؟ فقال : نعم. فقال : الحمد لله هذه علامة المؤمن. (يريد قول رسول الله ﷺ :

(1) الثبات عند الممات (178-179) .

«**المؤمن يَمُوتُ بعرق الجبين**») ثم بسط يده عند الموت، وقال:

هَا قَدْ مَدَدْتُ يَدي إليكَ فَرُدَّها
بالفَضْلِ لا بِشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[1]

16 - محمد بن إسماعيل البخاري - رحمه الله -:

قال مُحمَّد بن أبي حاتم: سمعت أبا منصور - غالب ابن جبريل - وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله، يقول: إنه أقام عندنا أيّامًا فمرض، واشتد به المرض، حتّى وجه رسولاً إلى مدينة سمرقند في إخراج محمد، فلما وافى تهيّأ للركوب، فلبس خفيه، وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها، وأنا آخذ بعضده، ورجلٌ أخذ معي، يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال - رحمه الله -: أرسلوني، فقد ضعفت، فدعا بدعوات، ثم أضجع، فقضى - رحمه الله - [2].

---

(1) الثبات عند الممات (179-190).

(2) سير أعلام النبلاء (12/466-467)، وانظر عظماء على فراش الموت ليوسف علي بديوي (52).

17 - إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي - رحمه الله - :

حكى عنه أنه لما جاء الموت، جعل يقول: يا حيُّ يا قيُّوم، لا إله إلاَّ أنت، برحمتك أستغيث. واستقبل القبلة، وتشهّد[1].

18 - بشر بن منصور - رحمه الله - :

قال عبد الأعلى بن حماد البرقي: دخلت على بشر بن منصور، وهو في الموت، فرزيته مستبشراً، فقلت له: ما هذا السرور؟ قال: أخرج من بين الحاسدين والباغين والمغتابين، وأقدم على رب العالمين، ولا أفرح؟!(2).

19 - يهودي أسلم في آخر لحظات حياته ببركة دعوة النّبيّ ﷺ:

عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي، يخدم النّبيّ ﷺ ، فمرض، فأتاه النّبيّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم - ﷺ - . فأسلم، فخرج النّبيّ ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء (51/22) .

(2) بهجة المجالس (373/3)، وانظر عظماء على فراش الموت (148) .

(3) رواه البخاري (259/3) الجنائز .

ب - أمثلة معاصرة لحسن الخاتمة

قال في تذكرة الإخوان:

حدثني صاحبٌ لنا: أنه مات رجلٌ في قريتهم، وكان مؤذنًا للقرية، ولا يأخذ على ذلك أجرًا، وكان له مزرعة، لا يمنع أحدًا الأكل منها، لا من إنسان ولا من حيوان، وكان كثير الصدقة، فمرض قبل موته لمدة أربعة أيام، وعند احتضاره اجتمعنا، وكان لا يكلمنا، ويُردد: أستغفر الله، لا إله إلاَّ الله. وفجأة رفع يده في الهواء، كأنه يصافح أحدًا، وهو يقول: أهلاً بصديقي، وحبيبي. ثم مات - رحمه الله -.

قال: وحدثني شيخٌ كبير، أنه مات على رجله كثير من أهل بلده، يقول: وأذكر أن واحدًا منهم، كان مسندًا رأسه على صدري، وكنت أُلقّنه شهادة التوحيد، فيُرددها، ثم أسفر وجهه، ومال بوجهه نحو القبلة، فخرجت روحه، وهو يبتسم - رحمة الله عليه -. اهـ.

ولقد غسّلت أنا رجلاً كبير السن، وكان لونه يميل إلى البني الداكن، وقبل الانتهاء من التغسيل، أخذ لونه يتغير أمام عيني، حتّى أشرق لونه، وكأن النور يخرج منه، وأنا أقول لصاحبي : ألا ترى لونه. فتبسم، وقال : ألم أقل لك. ثم قال : أمّا أهل الشر، فعلى خلافه – والعياذ بالله – .

وقال لي صاحبي مرة: لقد غسلتُ رجلاً أعرفه بالصلاح، وكان له ابن عاقٌّ يسبه ويشتمه، حتى طرد أباه من المحل، ثم مرض الرجل، ومات – رحمه الله –، فلما بدأت في تغسيله، كان جسمه طبيعيًا، ولَمْ أرَ عليه شيئًا، ولكنه لما وضعته في قبره، تغيرت ملامح وجهه، وصار النور يخرج منه، ثم شممت رائحة طيبة، ما عهدته من قبل، وأنا أنظر بعيني إليه رحمه الله.

وقال أيضًا: وغسلت الشيخ خالد أبا بشيت – رحمه الله – فاصفر جسمه بعد التغسيل، ولما نزلت القبر؛ لأسوي الرمل، قبضت حفنة من التراب، فشممتها، فإذا هي تفوحُ

مسكًا، وعندما أنزلناه، خرجت رائحة طيبة، ولَمْ تكن مما طيبته به، فأنا عطرته بالصندل والعود والزعفران، بينما هذه الرائحة تختلف عن ذلك - رحمه الله - .

يقول: وحدث أن غسَّلتُ رجلاً آخر، وكان لونه يميل إلى السواد، ولكن عندما فرغتُ من توضئته، وبدأت في تغسيله، ظهر عليه نور قوي، والله كأنه مصباح، وكان يتبسم، ولما أنزلته في قبره، والله، رأيتُ نوراً يبرق أمام عيني، وخرجت رائحة طيبة جداً، ما شممت في حياتي مثلها.

يقول: ونزلت في قبر أم خليفة الزامل - رحمها الله - ، فأخذت أمسح التراب لأسويه، فوالله، كانت تخرج منه رائحة طيبة، والجثة لاتزال في السيّارة، وحدث هذا أيضًا مع أم خليفة القصيبي - رحمهما الله تعالى - .

وحدّثني صاحب لي: أن والدته - رحمها الله - أُصيبت بمرض السرطان، فنحل جسمها، وغيّر لون وجهها، وكانت في الخامسة والستين من عمرها، وآخر أيامها

أُصيبت بنزيف حادٍّ، ثم ماتت، فلما دخلت النساء من أقاربي لتغسيلها، وقفتُ عند الباب أنتظرهن، وأقول: عجلن في الغسيل، فلما فرغن، قلن لي: ادخل، وعندما دخلتُ، فإذا بهن يضحكن، فقلت: عجبًا، هل عادت إلى الحياة؟ فقلن: نحن نزفُّ عروسًا لا ميّتة، فلما نظرتُ إلى وجهها، فإذا به أبيض مشرقٌ والابتسامة على مُحَيَّاها، وقد تغيّر شكلها، وزالت التجاعيد من وجهها، وكأنها بنت أربعين سنة – رحمها الله تعالى – .

وحكى الشيخ القحطاني: أنه أنزل رجلاً في قبره، في ليلة ظلماء، شديدة الظلمة، وكان الجو غائمًا، وكان هذا الرجل من الدعاة، وقد مات ليلة الجمعة في عملية جراحية، وصلّى عليه الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – فقد كان له محاضرة في الجامع الكبير، الذي أُحضر إليه الميت، وبعد المحاضرة ذهبنا للمقبرة، و طلبنا من أحد الإخوة أن يأتينا بسراج، أو كشّاف؛ لكي ننور القبر، ولكنه أبطأ علينا، فأخذتُ أعسُّ اللحد بيدي، فقلت للإخوة، أعطونا

الميت، فلما سللته من الرجلين، وضعته في قبره، ففككت تلك الأربطة، وكشفت عن وجه الميت، وإذا بالمصابيح والأنوار خرجت من ذلك القبر، وأنار القبر، ورآه كل من كان معي، وكانت رائحة المسك تخرج من ذلك القبر، ثم ذكر الشيخ بعض من حضروا وشاهدوا ذلك الأمر.

قال: ومَيِّتٌ آخر دفنّاه بعد صلاة الظهر، وكان داعية، وكان مواظبًا ومحافظًا على الصلاة في المسجد، فلما قمنا بدفنه، قلت: بسم الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ، فإذا به قد أخذ مني ذلك، واستقبل القبلة قبل أن أُنزله لحده، نزل فاستقبل القبلة، قبل أن أنزل أنا، ثم بعد ذلك كشفتُ عن وجهه، فوجدته يضحك في قبره، فداخلني الخوف بأن يكون هذا الميت لا يزال حيًّا، وأنا الذي غسّلتُهُ، وأنا الذي كفّنْتُهُ، وأنا متأكد من أنه مات، و فيه علامات الموت، ولكن هذه كرامة من الله؛ لذلك الرجل - رحمه الله تعالى - نحسَبه كذلك، والله حسيبه.

فسبحان من أظهر لعباده عجائب قدرته، فوالله، لقد

حدث معي كما حدث مع الشيخ – حفظه الله – ، فوالله لقد أبصرتْ عيناي، وإلاّ فعميتا ما أُخبركم به.

تُوُفي رجلٌ فوق الثلاثين، ودون الأربعين، وكنت أسمع عن صلاحه، ودعوته، ولَمْ أره إلاّ يوم غسَلتُهُ، فنظرت على وجهه، وكأنه – رحمه الله – قد شُدِّد عليه في سكرات الموت، وكنت أتمنى أن أرى عليه شيئًا يدل على حسن خاتمته؛ لكثرة ما كنت أسمع عنه من الاستقامة، والدعوة إلى تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة في مجال عمله، ولقد أخبرني أخوه أنه تبسّمَ، حين خرجت روحه، ولكني لَمْ أرَ ذلك عند التغسيل، ثم طيّبناه بدهن العود، ودهن الورد، أنا الذي وضعتُ الورد على موضع سجوده، وكفنه، ثم طلبوا تأخير الصلاة إلى العصر، فصلينا عليه العصر، وذهبنا إلى المقبرة، وكنت أريد أن أُنزله، ولكنه سبقني إلى ذلك اثنان من الإخوان، فوقفتُ على شفير القبر في جهة، أتمكّن من رؤية الوجه إذا كُشف عنه الغطاء، فلما أُحضرا الجنازة، كنت أشمّ المسك، ولا أدري من أين مصدرها، فأنزله في

القبر، والعجب أنه توجّه مباشرة نحو القبلة، وأنا أنظر، وقد سألت الذي من قبَلِ رأسه بعد ذلك: هل وجَهته إلى القبلة، فقال: لا، لم أُحرك فيه شيئًا، فلما كشف الغطاء عن وجهه، فوالله، كاد قلبي أن ينخلع من مكانه؛ لما رأيت من العجب، فقد كان متبسّمًا في قبره، ووجهه غير الوجه الذي غسَلتُهُ، وكانت فيه لمعة، وكأنه قد دُهنَ بزيت، وكان القبر من جهة رأسه مسفرًا، فقد رأيت ودفَنتُ قبله أمواتًا، فرأيت الفرق بعيني، وشاهد معي ذلك بعض الإخوان؛ منهم أخي جمعة الجمعة – حفظه الله – ، وسمعتُ ذلك من آخرين ممن حضر الدفن، ثم ذهبت في المساء إلى الذي كان عند رأسه، فسألته عن الذي رأى، فقال: ما شاء الله، تبارك الله، الرجل موفّق، والحمد لله، وبشرى الخير على وجهه، وكان منوَّرًا. هكذا قال، ثم قلتُ له: هل وجَهته إلى القبلة؟ قال: لا، بل هو توجّه – رحمه الله – ثم توجهت إلى الآخر، فقال لي: لتوّي كنت أُريد أن أتصل بك، فقلُ: خيرًا، حدثني، فأخرج مسكًا معتقًا عنده،

فمسح على يدي، ثم قال: شُمَّ فشممته، فقلتُ: رائحة طيبة، قويّة. قال: والله، لقد شممت في قبره مسكًا أقوى من هذا. فقلت: رحمه الله.

ونسأله سبحانه أن يُحسن خاتمتنا جميعًا، إنه جواد كريم، ثم ذهبتُ إلى أخيه، فبشرته بذلك، فسُرَّ به - بارك الله فيه، ورحمنا جميعًا، إذا صرنا إلى ما صاروا إليه بمنه، وكرمه، والحمد لله رب العالمين[1].

قال عبد الحق الإشبيلي: وروى يحيى بن سعيد، عن شعبة بن الحجاج، قال: فُتِنَ الناس بقبر عبد الله بن غالب، كان يوجد منه ريح المسك.

وقال مالك بن دينار - رحمه الله -: ذهبت إلى قبر عبد الله بن غالب ﷺ، فأخذت من ترابه، فإذا هو مسك.

وقال حماد بن زيد، حدثني سعيد بن يزيد قال: أدخلت يدي في قبر عبد الله بن غالب المدفون، فأخرجت

(1) باختصار من تذكرة الإخوان(63 - 88).

منه ترابًا، فإذا ريحه ريح المسك، وقصة هذا القبر صحيحة مشهورة، ولما خيفَ على الناس منه الفتن سُوِّي[1].

ولا شكَّ في أن من علامات، وأمثلة حسن الخاتمة، ما رؤي للعباد، والزهاد من الرؤيا الصادقة.

فمن ذلك: ما رواه خارجة بن زيد، قال: كانت أم العلاء الأنصارية تقول: لما قدم المهاجرون المدينة، اقترعت الأنصار على سكناهم، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض، فمرضناه، ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ، فدخلتُ، فقلتُ: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي أن قد أكرمك الله، فقال النّبيّ ﷺ: «**وما يُدريك أن الله قد أكرمه؟**» قلت: لا، والله لا أدري، فقال: النّبيّ ﷺ: «**أما هو، فقد آتاه الله اليقين من ربه، وإنّي لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي، ولا بكم**».

قالت: فوالله، لا أُزكي بعده أبدًا، قالت: ثم رأيت

---

(1) العاقبة لعبد الحق الإشبيلي (127) ط. دار الصحابة.

لعثمان بعد، في النوم عينًا تجري، فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «**ذاك عملُهُ**» [1].

ومن ذلك: ما رواه قيس بن عبادة قال: كنت في حلقة فيها سعد بن مالك، وابن عم، فخرج عبد الله بن سلام، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فقلت له: إنّهم قالوا كذا، وكذا، قال: سبحان الله، ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم، وإنما رأيت كأن عموداً وُضِعَ في روضة خضراء، فنصب فيها، وفي رأسها عروة، وفي أسفلها منصف - المنصف الوصيف -، فقيل: ارقَ، فرقيتُ، حتَّى أخذت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يَموتُ عبد الله، وهو آخذٌ بالعروة الوثقى**» [2].

قال صالح بن يسير: رأيت عطاء السلمي في النوم بعد

(1) رواه البخاري (14/12) الرؤيا، والبغوي في شرح السنة (242/12 -243).

(2) رواه البخاري (397/12) التعبير، ومسلم (16 / 24 - 43) فضائل الصحابة.

موته، فقلتُ له: يرحمك الله، لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، فقال: أما والله، لقد أعقبني ذلك فرحًا طويلاً، وسروراً دائمًا، فقلتُ: في أي الدرجات أنت؟ فقال: ﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: 69][1].

وقال إبراهيم بن إياس: رأيتُ سفيان الثوري في النوم بعد موته، وهو مخضوب اللحية، فقلت له: أبا عبد الله، ما فعل الله بك، قال: أنا مع السفرة.

قلتُ: وما السفرة؟

قال: الكرام البررة[2].

وقال مُحمّد بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته، فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: بلى، قلتُ: ما فعل اللهُ بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب،

---

(1) العاقبة (130).

(2) العاقبة (130).

قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ، ذاك ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69][1].

---

(1) العاقبة (131).

9 - كلمات ومواعظ على فراش الموت

1 - أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

قال عبد الله اليمني، مولى الزبير بن العوام رضي الله عنه : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه تمثلت عائشة رضي الله عنها بهذا البيت :

أَعَاذِلَ ما يُغْنِي الحذَارُ عن الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضاقَ به الصَّدْرُ

فقال أبو بكر : ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي : ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ ما كنت منه تحيدُ** ﴾ [ق : 19] انظروا ثَوْبيَّ هذين، فاغسلوهما، ثم كفنوني فيهما، فإن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت[1].

2 - أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه :

عن سعيد بن المسيب قال : لما طُعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين، وقال : إني موصيكم بوصية،

---

(1) الزهد للإمام أحمد (109) .

إن قبلتموها، لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدّقوا، وحجوا، واعتمروا، وتواصلوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تُلهكم الدنيا؛ فإن امرئ لو عمّرَ ألف حول، ما كان له بدّ من أن يصير إلى مصرعي هذا، الذي ترون، إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون؛ فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله، يا معاذ بن جبل، صلِّ بالناس[1].

3 - أبو الدرداء رضي الله عنه:

عن أم الدرداء قالت: إن أبا الدرداء لما احتضر، جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟[2] ثم يقول: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام: 110].

---

(1) الرياض النضرة (358/4).

(2) حلية الأولياء (217/1).

4 - **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه :

قال أبو عمر بن العلاء: لما احتضر معاوية، قيل له: ألا توصي؟ فقال: اللهم أقل العثرة، واعفُ عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لَمْ يرج غيرك فما وراءك مذهب. وقال:

هُوَ الموتُ لا مَنْجَى منَ الموت والّذي
نُحاذرُ بعد الموتِ أدْهَى وأفظع[1]

5 - **عمرو بن العاص** رضي الله عنه :

عن عبد الرحمن بن شماسة المهري - رحمه الله - قال: حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياق الموت، فبكى طويلاً، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يُبكيك يا أبتاه؟ أما بَشّركَ رسول الله ﷺ بكذا وكذا؟.

فأقبل بوجهه، فقال: إنه أفضل ما يُعَدُّ شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمّد رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني، وما أحدٌ أشدّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا

(1) سير أعلام النبلاء (160/3) .

أحبّ إليّ أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو متُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيتُ النّبيّ ﷺ، فقلتُ: ابسطْ يمينك، فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، فقال: «**ما لك يا عمرو؟**» قال: قلتُ: أردت أن أشترط. فقال: «**تشترط ماذا؟**» قلت: أن تغفر لي، قال: «**أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟**» وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أحلى في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه؛ إجلالاً له، ولو قيل لي صفه لما استطعت أن أصفه؛ لأني لَمْ أكن أملأ عيني منه، ولو متّ على تلك الحال، لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا متُّ، فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني، فسُنُّوا عليَّ التراب سنًّا «الصبُ في سهولة»، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جزور، ويُقسم لحمها، حتّى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[1].

---

(1) رواه مسلم (121) الإيمان .

6 - هشام بن عبد الملك:

عن إسحاق بن أبي عمر الشيباني، قال: لما احتضر هشام بن عبد الملك، أبصر أهله يبكون حوله، فقال: جاد عليكم هشام بالدنيا، وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام، إن لم يغفر له...»[1].

7 - الإمام الشافعي - رحمه الله -:

قال الربيع بن سليمان: دخل المزني على الشافعي، في موضعه الذي مات فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنيّة شاربًا، وعلى الله واردًا، ولسوء أعمالي مُلاقيًا.

قال: ثم رمى بطرفه نحو السماء، واستعبر ثم أنشأ يقول:

إليكَ إلَهَ الخلق أرفع رغبتي
وإنْ كُنْتُ يا ذا المنِّ الجُود مُجْرِمًا

---

(1) المحتضرين لابن أبي الدنيا (87).

وَلما قَسَى قَلْبي وضاقَتْ مذاهبي

جَعَلْتُ الرَّجا منِّي لعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظمني ذنبي فلَمَّا قرنتُهُ

بعَفْوِكَ رَبِّي كان عفُوكَ أعظَمَا

وما زِلْتَ ذا عَفْوٍ عن الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ

تَجُودُ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيَّكَ آدَمَا

فإنْ تَعْفُ عَنِّي تَعْفُ عَنْ مُتَمَرِّدٍ

ظَلُومٌ غَشُوم ما يُزايل مآثِما

وإن تَنْتَقِمْ منِّي فَلَسْتُ بآيس

وَلَوْ أُدْخِلْتَ بِجُرْمي جَهَنَّما

فَجُرْمي عَظيمٌ مِنْ قَديم وَحَادِثٍ

وعَفْوُكَ يا ذا العَفْوُ أعلى وأجسَمَا[1]

---

(1) المنهج الأحمد (126/1 - 127) .

8 - عبد الملك بن مروان - رحمه الله - :

قيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ** ﴾ [الأنعام: 94][1].

9 - هارون الرشيد - رحمه الله - :

حُكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها، ويقول: ﴿ **مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ [الحاقة: 28-29] [2].

10 - المأمون - رحمه الله - :

رويَ أن المأمون افترش رماداً، واضطجع عليه، وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه[3].

---

(1) نقلاً من البحر الرائق (272).

(2) نقلاً من البحر الرائق (272).

(3) نقلاً من البحر الرائق (272).

11 - حسان بن أبي سنان:

عن مهدي بن ميمون قال: رأيت حسان بن أبي سنان – أحسبه في مرضه – قيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار(1)، قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين، أحيي ما بين طرفيها.

12 - يزيد الرقاشي:

قال درست القزاز: لما احتضر يزيد الرقاشي، بكى، فقيل له: ما يُبكيك – رحمك الله؟ قال: أبكي، والله على ما يفوتني من قيام الليل، وصيام النهار، ثم بكى، وقال: من يصلي لك يا يزيد؟ ومن يصوم؟ ومن يتقرب لك إلى الله بالأعمال بعدك؟ ومن يتوب لك إليه من الذنوب السالفة؟

ويْحَكُم يا إخوتاه، لا تغرنَّ بشبابكم، فكأن قد حلّ

---

(1) المحتضرين لابن أبي الدنيا (144- 145).

بكم ما حلّ بي من عظيم الأمور، وشدة كرب الموت، النجباء النجباء! الحذر يا إخوتاه! المبادرة رحمكم الله[1].

13 - رجل من علية هذه الأمة:

عن عبيد الله بن مُحمّد التيمي، قال: حدثني بعض أشياخنا أن رجلاً من علية هذه الأمة حضرته الوفاة، فجزع جزعًا شديدًا، وبكى بكاءً كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: ما أبكي إلاّ على أن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويُصلي المصلون ولستُ فيهم، ويذكر الذاكرون ولستُ فيهم، فذاك الذي أبكاني[2].

14 - رجل لم يصرح باسمه:

قال عبد الله بن عتبة: عدتُ رجلاً مريضًا، فلما قعدتُ عنده، قلتُ له: كيف تجدك؟ فقال:

خَرجت من الدُّنيا وقامت قيامتي

غداة أقل الحاملون جنازتي

(1) المحتضرين لابن أبي الدنيا (146).

(2) المحتضرين لابن أبي الدنيا (146).

وعَجّل أهلي حَفْرَ قبري وصَيّروا
خروجي وتَعْجيلي أجلّ كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قطُّ صورتي
غداةُ أتى يَوْمي عَلَيَّ وسَاعَتي[1]

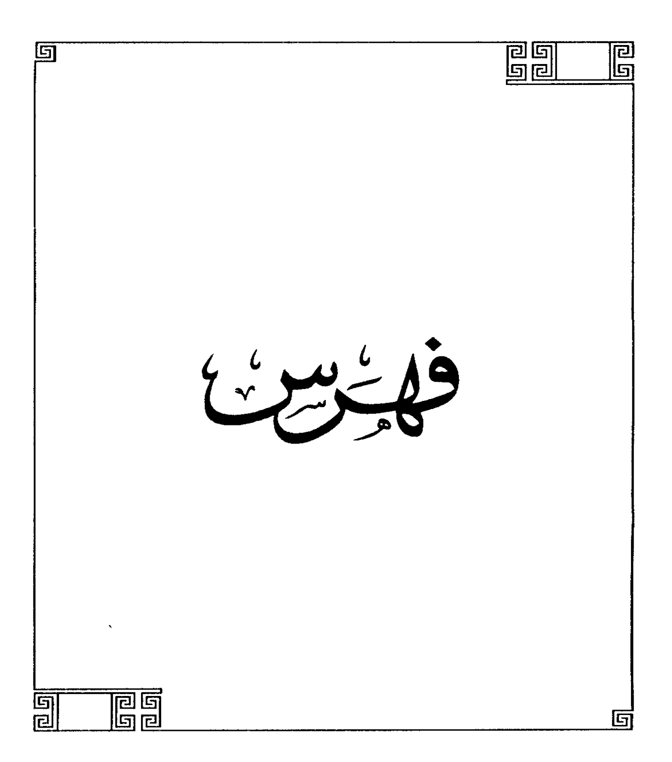
15 - بعض المتعبدين:

قال أحمد بن أبي الحواري: « دخلتُ على بعض المتعبدين، وهو مريض، فقلتُ: كيف تجدك؟ فقال: بحال شريفة، كريم حبيس جوارحه مع أعوان صدق، والله لو لَمْ يكن بي ما ترون عوضًا إلاّ أن أودع قلبي من محبته لكنتُ خليقًا أن أدوم على الرضا عنه، وما الدنيا، وما الغاية البلاء فيها؟ هل هو إلاّ ما ترون من هذه العلة؟ ويوشك أن اشتد بي الأمر أن ترحلني إلى سرور، ولنعمت العلة علة رحلت بمحب إلى محبوب، قد أحزنه طول التخلف عنه »[2] .

---

(1) العاقبة لعبد الحق الإشبيلي الأزدي (63) ط. الصحابة.

(2) العاقبة لعبد الحق الإشبيلي (63) .


فهرس

فهرس



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨